الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
ISLAMIC UNIVERSITY OF MADINAH

مجلة الجامعة الإسلامية

للغة العربية وآدابها

مجلة علمية دورية محكمة

العدد : ٤ | الجزء : ٢ | يناير - أبريل ٢٠٢٢ م

١٣٨١
١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

مظاهر التعصُّب اللساني ضد اللغة العربية في دوائر البحث الغربية

Manifestations of Linguistic Bigotry Against the Arabic Language in Western Research Circles

أ.د. عزمي محمد "عيال سلمان"

أستاذ الدراسات اللغوية بقسم اللغة العربية بكلية العلوم والآداب بجامعة نجران

البريد الإلكتروني: amsalman@nu.edu.sa

المستخلص:

تهدف هذه الدِّراسة إلى رصد مظاهر التعصب اللساني ضد اللغة العربية في دوائر البحث الغربية، ولا تدّعي أنها ستقف على كل مظاهر التعصب هذه، فحسبها أن تُحيط بجزئية منها، وبالذات تلك المتعلقة بالأثر المتبادل بين بنية اللغة العربية والبنية العقلية للناطقين بها، وما نتج عنها من مزاعم وانطباعات ذاتية. وقد جاءت مظاهر التعصب المحددة بهذا الإطار في ثلاث دعاوى أساسية، هي: أولًا: القصور العقلي، وثانيًا: عدم القدرة على التفكير الصادق والحقيقي، وثالثًا: اللعب الكلامي. فالادّعاء الأول والثاني يتعلقان بالأثر السالب لبنية اللغة العربية في البنية العقلية للناطقين بها، وأما الادّعاء الثالث فيتعلّق بالأثر السالب للبنية العقلية في بنية اللغة العربية. وقد اتّخذت الدراسة من المنهج الوصفي التحليلي أداة لتفحّص تلك المزاعم وبيّنت أسبابها وفرضياتها، وانتهت إلى أنها لا تستند في معظمها إلى أي أُسس سليمة، وإنما هي انطباعات ذاتية، لا قيمة لها في ميزان العلم. وهي بذلك تُشكِّل استثناءً صارخًا في مسيرة حديثة لحقل معرفي يَغُذُّ الخطى ليلحق بركب (العلمية). واللسانيات اليوم، وإن كانت تدّعي الظفر بالسِّمة: (العلمية)، كما أراد لها رائدها (فردينان دي سوسير) قبل مائة عام أو يزيد، فإنها، في الحقيقة، يعتريها بعض الأباطيل والخُرافات، وهي بذلك ليست موضوعية تمامًا، وليس أدلّ على ذلك من ظاهرة التعصب اللساني التي تشي بتضمُّن اللسانيات لكثير من النظرات الشعبية. وبذلك فإن اللسانيات المعاصرة، من الناحية الموضوعية، ليست بريئة تمامًا سواء في مجرياتها أم منطلقاتها.

كلمات مفتاحية: التعصُّب، البنية العقلية، البنية اللغوية، الموضوعية، العلمية، اللغة العربية.

Abstract:

This study aims to monitor the manifestations of linguistic bigotry against the Arabic language in Western research circles, and it does not claim that it will discuss every manifestation of this bigotry, as it is sufficient to cite some of them, especially those related to the mutual impact between the structure of the Arabic language and the mental structure of its speakers, and the resulting subjective claims and impressions. The specific manifestations of bigotry in this framework came in three basic claims: First: mental deficiency, secondly: the inability to think honestly and truly, and thirdly: verbal play. The first and second claims relate to the negative impact of the structure of the Arabic language on the mental structure of its speakers, and the third claim relates to the negative impact of the mental structure on the structure of the Arabic language. The study took the analytical descriptive method as a tool to examine these allegations and showed their reasons and hypotheses, and concluded that they are not based in most of them on any sound foundations, but rather they are subjective impressions, which have no value in the balance of scholarship. It thus constitutes a glaring exception in the modern march of a field of knowledge that is feeding the pace to catch up with (scholarly). Linguistics today, even if it claims to have the achieved: (scholarly), as its pioneer (Ferdinand de Saussure) intended for it a hundred or more years ago, it is, in fact, riddled with some falsehoods and myths, and thus it is not completely objective, and the best evidence for that is the phenomenon of linguistic bigotry, which indicates that linguistics includes many popular views. Thus, contemporary linguistics, in some respects, is not completely innocent, either in its processes or its sources.

Key words: Bigotry, mental structure, linguistic structure, objective, scholarly, Arabic language.

المقدمة:

يتطلَّب التعقيد غير المتناهي لمسألة تنوُّع اللغات وتفوُّق بعضها على بعض فهمًا علميًا أكثر موضوعية، فهنالك أحاديث مُقَولبة وأنصاف حقائق مشكوك فيها، لا تزال تُغذِّي التعصب اللساني في الجانب المتحضر من العالم، وإذا ما بقي الأمر على هذا النهج فسنجد أنفسنا مُضطَّرين إلى غمغمة لسانية، أو نجد أنفسنا مُجبرين على أن نواصل البحث في مسألة تنوُّع اللغات مستعملين منظارًا متحيّزًا لتحديد اللغة المثالية من بين جميع اللغات.

واللسانيات اليوم تدفعنا، من وجهة نظر منهجية، إلى نموذج جديد للموضوعية، وإن الموضوعية المطلوبة إلى الآن في العلوم الإنسانية هي موضوعية المعطى، فالمقصود هو قبولها بالكامل. وإن اللسانيات من جهة أولى لتقترح علينا أن نُميّز التنوُّعات اللغوية، وأن نُصنِّف العناصر المميزة لكل نوع منها. وبالاختصار، فإنها تقترح علينا أن نُؤسِّس التمييز الخاص بنوع ما، ولا تقترح علينا تقييم النوع نفسه.

وإنها لتدعونا، من جهة أخرى، إلى الاعتراف بأن التنوع اللغوي أمر قائم، وعلينا ألا نسمح للتنوُّع الواسع بين اللغات بالاختفاء خلف مفهوم (اللغة المثالية)؛ تلك اللغة التي خُيِّلتْ لغةً أساسية، ونُظر إليها بأنها ذات أصل إلهي، فهي اللغة التي تتكلمها القوى الخيّرة فوق مستوى البشر كما عند الآلهة أو الملائكة والرُّسل الإلهية؛ ولذلك فإنها لغة ثابتة وغير قابلة للتغير، وغريزية، ورمزية مطابقة، ومختصرة للغاية ومنطقية وطبيعية. وتُعزى هذه المواصفات نفسها إلى اللغة الأولية، أو لغة الإنسان الأصلية المفترضة، والتي تعدّها معظم الأنظمة الدينية ذات أصل إلهي.

وهناك بالطبع مصاعب جمّة تُحيط بمفهوم (اللغة المثالية)، فمن وجهة النظر اللسانية، سيكون من المستحيل الكذب في مثل هذه اللغة؛ لأن الانسجام التامّ بين اللفظ والواقع سيَعني أنه لا يمكن نطق سوى الأقوال الصحيحة، وأكثر من ذلك، فإنه لا يمكن نطق أي شيء جديد، وإن الأقوال الممكنة كافة ستكون معروفة مسبقًا للمستمعين، أو أن نطق كلمة واحدة سيُغني في واقع الأمر عن

الأقوال الأخرى الممكنة كافة[١].

وبالإضافة إلى ذلك هنالك إشكالات أخرى يفرضها هذا المفهوم في اللسانيات المعاصرة، لعل من ضمنها أن التمييز بين اللغات وإجراء مفاضلات بينها خارج عن إطار العلم والموضوعية، فإنْ كان الماضي القريب قد شهد، بشكل ظاهري، اندحارًا كبيرًا للتمييز العرقي، ولم يكن ذلك نتيجة لتطبيق بعض الحجج المعرفية، بل لأسباب عملية؛ أي لما تُحدِثه من مآس وويلات، فإنه ليس غريبًا اليوم أن نجد بعض من يتورَّعون عن تأييد الأفكار غير الناضجة عن الأعراق، لا يزالون يتكلمون بثقة وبفخر عن لغات متحضرة وأخرى بدائية، أو أن يصفوا لغة ما بأنها مرنة وعقلانية، وأخرى بأنها جامدة وحسّية.

ومثل هذه الأحكام ليست أحاديث تُدار في المجالس أو المقاهي، بل إنها صادرة عن نقاشات تُقام في ندوات ومجلّات علمية تعدُّ نفسها جادة. وقد اعتاد الدرس اللساني على سماع كلام ساذج عن اللغة من قِبَل علماء غير متخصصين في اللغة، ولكن في مسألة التعصب اللساني، فإننا لا نزال نسمع ونقرأ لكثير من اللسانيين المتخصصين الذين تعجُّ كتاباتهم بالعنصرية والتحيّز لفصيلة ما من الفصائل اللغوية.

وسيتّضح الآن أن بالإمكان الوقوف على مثل هذا التعصب اللساني، وبالذات ذلك التعصب الذي مُورس على اللغة العربية، من قِبَل اللسانيين الغربيين. فهنالك توصيفات سعت إلى تصوير اللغة العربية تصويرًا مختصرًا، وهذا الهدف مقبول؛ ذلك أنه عادة ما يحاول بعض اللسانيين الجادين تحديد تلك الخصائص العامة التي تُميِّز اللغات تمييزًا جذريًا، وذلك بالكيفية نفسها التي يُستعمل بها الجنس والسنّ مادة أساسية لتصنيف الناس، فوصف اللغات بأنها:

(١) يُنظَر: ليكوك، دونالد وموهليسلر، بيتر: **هندسة اللغة (لغات خاصة)**، ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثالث (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٢١هـ، ص٨٥٥.

إلصاقية في مقابل اللغات المتصرفة، أو أن الترتيب فيها هو: (فاعل – فعل – مفعول) في مقابل (فعل – فاعل – مفعول) ...إلخ، فمثل هذه الأوصاف وغيرها، هي مفاتيح يُنظَر إليها على أنها أساسية في تصنيف اللغات وتمييز بعضها من بعض. ونتيجة لذلك فإن تقسيم اللغات إلى أنواع وأصناف تبقى تقسيمات اسمية محضة، ولا تُمثِّل سوى وسائل تتعلَّق بحاجاتنا وحدود معرفتنا(١).

وأما الهدف غير المقبول، فهو الهدف الذي يسعى إلى وصف اللغات وتصنيفها ليجعل من ذلك وسيلة علمية خادعة لإعلاء شأن فصيلة لغوية ما، ولإقصاء فصائل أخرى، وعادة ما ينتج عن مثل هذه التصنيفات إطلاق أحكام جائرة على اللغات المقصاة، ووصفها بألقاب لا تتفق مع البحث اللساني العلمي أو الجاد.

وبما أن هذه الدراسة قد جاءت لترصد الموقف المتعصب ضد اللغة العربية في دوائر البحث الغربية، فإنها سترصد بعض النماذج المقولبة عن العربية، وبالذات تلك النماذج المتعلقة بالأثر المتبادل بين بنية اللغة العربية والبنية العقلية للناطقين بها، وما نتج عن ذلك من أحكام منحازة تنسب القصور والعجز إلى كلتا البنيتين. وتجدر الإشارة إلى أن الباحث قد استفاد فائدة كبيرة في رصد تلك النماذج بما جاء في كتاب: (محاسن العربية في المرآة الغربية) لمؤلفه ديفيد جستس(٢)، والسبب في ذلك

(١) يُقدِّم التصنيف النمطي للغات في الحقيقة مشاكل عديدة مثل التجميع الوراثي، ولكن في مثل هذا المستوى يُصبح اختيار المعايير على وجه الخصوص هو الذي يطرح نوعًا من الصعوبة. فإذا كانت نظرية عولمة الخصائص البنيوية العامة التي يمكن للأبنية النوعية المحتملة أن تقتصر عليها في النهاية، فإنه من الرصانة ألا نزعم ذلك الأمر مسبقًا، وعندها تفقد فكرة تصنيف اللغات على أساس نمطي جزءًا من مضمونها. يُنظَر: مالبرج، برتيل: **مدخل إلى اللسانيات**، ترجمة: السيد عبد الظاهر، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م، ص٢٨٥.

(٢) يُنظَر: جستس، ديفيد: **محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية**، ترجمة: حمزة قبلان المزيني، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٥هـ.

يعود إلى وقوفه على أكثر المقالات المتحيّزة تأثيرًا وانتشارًا في دوائر البحث الغربية.

وقد استقت الدراسة مُحدِّداتها، وهي تبني موضوعها، من اللسانيات المعاصرة، وجعلت من المنجز اللساني في الغرب أداة لدفع مظاهر التعصب ضد العربية، فإنْ كانت الدعاوى المنحازة منحصرة في دوائر البحث الغربية، فإن الردود في غالبها قد توسَّلت أيضًا بالمعطيات العلمية التي أقرّتها دوائر البحث نفسها.

ومن الجدير ذكره أن الباحث وهو يتتبع مظاهر التعصب ضد العربية، لم يقف على دراسة عربية استثمرت مظاهر التعصب هذه، ومن هنا كان لزامًا على الباحث أن يفرد هذه الصفحات لمعالجتها ضمن مقاربة محددة نظريًا باللسانيات النظرية، وزمنيًا بالمبادئ والمناويل النظرية التي سادت خلال فترة القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين.

وبالاتّكاء على المنهج الوصفي التحليلي، حاولت الدراسة ضمن أهدافها المتعددة الإجابة عن السؤال الآتي: ما مظاهر التعصب اللساني ضد اللغة العربية، وما موقف اللسانيات العلمية منها؟ فإنْ استطاعت الدراسة أن تُجيب عن هذا، فإنها ستكون بذلك قد حققت الغاية التي وُضعت من أجلها، والله وليّ التوفيق.

وفي هذا المقام تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة هي مشروع بحثي يحمل الرمز (NU/-/SEHRC/10/1071)، ضمن المشاريع البحثية المدعومة للمرحلة العاشرة في جامعة نجران، ولهذا فإنني أتحيّن الفرصة لأُزجي جزيل الشكر وعظيم الامتنان لوزارة التعليم ولعمادة البحث العلمي في جامعة نجران – المملكة العربية السعودية، للدعم المالي والتقني الذي حظيتُ به طيلة إعداد المشروع.

تمهيد: تأسيس الثقافة الغربية لظاهرة التعصب اللساني:

ينبغي التنبيه، من البداية، إلى أن الموقف المتعصِّب ضد اللغة العربية لم يكن ردّة فعل على تحيُّز علماء العربية للغتهم، فمثل هذا التحيّز لا يمكن نفيه، ولكن يمكن وصفه بأنه قليل للغاية، فتحيُّز كل أمة للغتها هو من الأمور المتوقّعة، فهنالك أقوال للعلماء تُشير إلى تفوُّق العربية على غيرها من اللغات. ولكن، وللحقيقة، فإن الشعور بتفوُّق العربية عادة ما يُوازِن بين العربية ولهجاتها، فيُقيم مقارنة بينهما، ويحكم بتميُّز العربية الفصيحة بالمنطقية(١).

ولكن عندما ننظر في ظاهرة التعصب اللساني، ونتساءل عن أصلها ونُسلِّط الضوء على التفاسير الأيديولوجية التي قدَّمتها الثقافة الغربية لها، سوف نجد أنها قد جعلت الثقافة الإسلامية هي المسؤولة عن تأسيس أسطورة تفوُّق إحدى اللغات على غيرها، تلك الأسطورة التي تحمل في طيّاتها أدلَّة أيديولوجية من شأنها أن تُغذّي الصراع بين اللغات. فالمظهر الأيديولوجي لهذه الأسطورة كان له آثاره المستمرة عبر العصور.

فباسم قراءة معينة للقرآن الكريم، طُوِّرتْ نظرية عرقية تحاول إثبات تفوُّق العربية على غيرها من اللغات. ففي القرآن الكريم إشارات لغوية كثيرة ترجع إلى فكرتين أساسيتين: الفكرة الأولى أن لغة القرآن؛ أي لغة النص الذي أُنزل على النبي – صلى الله عليه وسلم – هي العربية الفصيحة(٢). والفكرة الأساسية الثانية هي أن الأسلوب

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٤٩، ٥٠.

(٢) لقد قُيِّض للغة القرآن أن تحفظ العربية في صورتها النموذجية الصرفة، وعُدّ أي انحراف عن هذه الصورة دليلًا على البُعد عن نهج الفصاحة والبلاغة، ومن ثَمَّ لم يحدث أن تطوّرت اللهجات الدارجة المتولدة عن العربية النموذجية إلى درجة تصل فيها إلى مستوى لغات منفصلة ومعترف بها كما هي الحال في اللغات المنحدرة من اللاتينية أو السنسكريتية أو الماندارينية. فكل لغة عادة ما تتكوّن في ذاتها من عدد من اللهجات المحلية، وهي غالبًا ما تكون مختلفة إلى درجة قد يصعب معها بالنسبة إلى مستعملي إحداها أن يفهموا أولئك =

القرآني هو أسلوب مُعجِز، والآيات التي يظهر فيها تأكيد هذا الإعجاز كثيرة، فالنص القرآني ليس من اختراع البشر، وإنما أنزله الله على النبي محمد – صلى الله عليه وسلّم – فليس بمقدور أحد أن يأتي بمثله.

وترى هذه القراءة أنه في أدب الرؤى وفي الاتجاه الإسلامي العام تأكيد بأن العربية لغة آدم، وهي أيضًا لغة الجنة، وحين عصى آدم ربّه جعل الله السريانية لغة له. فكان العقاب الأعظم هو حرمان الإنسان العاصي من لغته العربية. وفي الاتجاه الإسلامي العام فكرة مؤدّاها أنه لا يمكن للغة أخرى أن تتفوَّق على العربية في الفصاحة وفي الشعر؛ ذلك أن نظرية إعجاز القرآن تتجاوز إلى حدّ كبير الدليل الذي ذُكر، والذي يبتغي إثبات حقيقة الأصل الإلهي للنص القرآني. فلئن كان البلاغيون العرب الأوائل قد أخذوا على أنفسهم عمومًا إثبات أصالة القرآن ومصدره الإلهي، عن طريق الأدلة اللغوية، فإن مشروعهم ما لبث أن تجاوز حدوده الأصلية الدينية ليُعبِّر عن رهان اجتماعي قديم.

وأمّا مراحل هذا المسعى فهي على هذا النحو: يُثبتُ في المرحلة الأولى أن النص القرآني نص إلهي؛ لأنه مُعجِز، والدليل عليه، موجود في القرآن نفسه. ثم يُبيَّن في مرحلة ثانية أن الفصاحة الإلهية مرتبطة باللغة العربية التي يستغل النص المقدس إمكاناتها أحسن استغلال، مصداقًا للآية الكريمة: "بلسان عربي مبين" (سورة الشعراء: ١٩٥). ومن جهة أخرى، لا يمكن لأحد أن يزعم أنه يستطيع في أي لغة أخرى أن يفعل ما عجز العرب عن فعله؛ أي تجاوز القرآن في فصاحته. وهكذا يستتبع إعجاز القرآن تفوُّق اللغة العربية نفسها؛ لأنه إن كان العربي الفصيح لا يستطيع أن يُباري النص القرآني، فستكون اللغات

=

الذين يستعملون لهجة أخرى. يُنظَر: دو سوان، أبرام: **كلمات العالم (منظومة اللغات الكونية)**، ترجمة: صديق محمد جوهر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠١١م، ص١٤٠، ١٤١؛ ديكرو، أوزوالد وسشايفر، جان ماري: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٣م، ص١٢٨.

الأخرى والمتكلمون بها خَلْف ذلك بكثير.

ووفقًا لهذه القراءة، فقد نتج عن ذلك نشوء نظرية تجعل الفصاحة سمة من سمات العرب، فالعربية هي لغة الله، وهي إذًا لغة كاملة، والعرب يتكلمون لغة الله، فهم إذًا شعب مختار، والعربي أفصح الناس، لا يفوق كلامه، فصاحةً، إلا الكلام الإلهي، والعربي أمير الفصاحة والشعر. فليس في الأصل إلا لغة واحدة هي العربية: لغة الله، ولغة آدم، ولغة الجنّة[1].

وفي حقيقة الأمر، إن المسألة بخلاف ذلك، وما قيل سابقًا ليس سوى محض افتراء، سواء أتعلَّق الأمر بتأسيس الثقافة الإسلامية لظاهرة التعصب اللساني، أم الادّعاء بأن الاتجاه الإسلامي العام يرى أن العربية تتفوّق على جميع اللغات. فليس في القرآن الكريم ما يُشير إلى ذلك أو يؤكّده، فهذا ابن حزم يقول: وقد تَوهَّم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له؛ لأن وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة، وقد قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليُبيّن لهم" (سورة إبراهيم: ٤)، وقال تعالى: "فإنّما يسَّرناه بلسانك لعلَّهم يتذكّرون" (سورة مريم: ٩٧). فأخبر تعالى أنه لم يُنزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا لغير ذلك.

وقد غلط في ذلك جالينوس (١٢٩ – ٢١٦م)، فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات؛ لأن سائر اللغات إنما هي تُشبِه: إمّا نُباح الكلب أو نقيق الضفادع. وهذا جهل شديد؛ لأن كل سامع لغة ليست لغته، ولا يفهمها، فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق. وقد قال قوم: العربية أفضل اللغات؛ لأنه بها نزل كلام الله تعالى. وهذا لا معنى له؛ لأن الله عزّ وجلّ قد أخبرنا أنه لم يُرسِل رسولًا إلا بلسان قومه، وقال تعالى: "وإنْ من أُمّة إلا خلا فيها نذير"، (سورة فاطر: ٢٤)، وقال تعالى: "وإنه لفي زبر الأوَّلين" (سورة الشعراء: ١٩٦). فبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى

(١) يُنظَر: كالفي، لويس جان: **حرب اللغات والسياسات اللغوية**، ترجمة: حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ص٦١ – ٧٦.

ووحيه، وقد أنزل التوراة والإنجيل والزبور وكلّم موسى عليه السلام بالعبرانية. وأنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام بالسريانية، فتساوت اللغات في هذا تساويًا واحدًا.

وأمّا لغة أهل الجنّة وأهل النار، فلا علم عندنا إلا ما جاء في النص والإجماع. ولا نصّ ولا إجماع في ذلك، إلا أنه لا بدّ لهم من لغة يتكلمون بها ضرورة، ولا يخلو ذلك من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها: إمّا أن تكون لهم لغة واحدة من اللغات القائمة بيننا الآن، وإمّا أن تكون لهم لغة غير جميع هذه اللغات، وإمّا أن تكون لهم لغات شتّى.

لكن هذه المحاورة التي وصفها الله تعالى توجب القطع بأنهم يتفاهمون بلغة، إمّا بالعربية المختلفة في القرآن عنهم، أو بغيرها مما الله تعالى أعلم به، وقد ادّعى بعضهم أن اللغة العربية هي لغتهم واحتج بقول الله عزّ وجلّ: "وآخر دعواهم أنْ الحمد لله ربّ العالمين" (سورة يونس: ١٠). وبذلك يمكن أن يُقال إنها لغة أهل النار أيضًا لقوله تعالى عنهم أنهم قالوا: "سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص" (سورة إبراهيم: ٢١)، ولأنهم قالوا: "أنْ أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله" (سورة الأعراف: ٥٠)، ولأنهم قالوا: "لو كُنّا نسمع أو نعقل ما كُنّا من أصحاب السّعير" (سورة الملك: ١٠).

ولو أن اللغة العربية هي لغة أهل الجنة ولغة أهل النار، فإن ذلك يقضي بأنَّ موسى وجميع الأنبياء عليهم السلام كانت لغتهم العربية؛ لأن كلامهم محكي في القرآن عنهم بالعربية، وهذا ما لا يُصدِّقه القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليُبيّن لهم" (سورة إبراهيم: ٤). فصحّ أن الله تعالى إنما يحكي لنا معاني كلام كل قائل في لغته باللغة التي بها نتفاهم ليُبيّن لنا عزّ وجلّ فقط، وحروف الهجاء واحدة لا تفاضل بينها ولا قُبح، ولا حُسن في بعضها دون بعض، وهي تلك بأعيانها في كل لغة، فبطلت هذه الدعاوى الزائغة الهجينة وبالله تعالى التوفيق[1].

(١) يُنظَر: ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد: **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م، ج١، ص ص٣٣ – ٣٥؛ ابن حزم، أبو محمد =

وإن اللغة العربية التي تُمثِّلها المادة الضخمة التي بين أيدينا اليوم هي لسان التنوع العرقي الإسلامي العظيم، الذي كان نتيجة للتوسع الإسلامي، وهي التي تُمثِّل أعظم تجاوز للنسب والمكان الخالصين، ويجب أن تُنبَذ أي محاولة يُقصَد منها استخلاص أي شيء عن العرب من اللغة العربية، ولا سيما أننا لا نملك إلا قدرًا محدودًا من الأدلة اللغوية الموثوق بها، التي تعود إلى الفترة التي كانت هذه اللغة خلالها مقصورة على عرق متجانس تقريبًا؛ أي فترة (الجاهلية) حين كان البدو المنعزلون في جزيرتهم مجردين من أي رسالة عالمية كبرى(١).

فاللغة العربية قد امتدّت خطوطها عبر الشمال الأفريقي إلى الطرف الجنوبي من إسبانيا، متخللة الشاطئ الشرق أفريقي، متوغلة في عمق آسيا الوسطى. فهذه اللغة المنحدرة من شبه الجزيرة العربية قد انتشرت برًّا عن طريق الفتوحات والتجارة. وعلاوة على ذلك فقد فاقت غيرها من اللغات في الانتشار بحرًا بسبب اعتناق الشعوب للإسلام.

وهكذا فقد غطت اللغة العربية العالم الإسلامي بصورة تكاد تكون شاملة، فهي لغة الحديث الأولى في شمال أفريقيا وفي الشرق الأوسط، وفي ما سوى ذلك أدامت التنافس مع لغات مركزيّة عظمى، وقبعت في الأعم منحصرة في المجال الديني في شبه القارة الهندية وفي جنوب شرق آسيا وفي أجزاء من جنوب الصحراء الأفريقية. وفي عهد قريب نسبيًا، جلب المهاجرون المسلمون اللغة العربية معهم إلى أوروبا، كلغة شعائر، وكلغة منزلية أيضًا بالنسبة إلى كثير من مسلمي الشمال الأفريقي. ومن الجدير بالذكر أن التمدد الشاسع للغة العربية هو ما تبقّى من أثر

=

علي بن أحمد: **"نقض تفاضل اللغات"، ضمن كتاب (اللغة: دفاتر فلسفية)**، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٦٠.

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٣٨٤.

سلسلة متوالية وطويلة من الفتوحات الإسلامية. وفي الحقيقة فإن محاولة إقصاء اللغة العربية؛ كي تتحوّل إلى لغة دينية يقتصر دورها على القيام بوظائف شعائرية يكشف عن السطوة المتنامية للقوى الغربية(١).

فاللغة العربية، بوصفها لغة دين عالمي، تقتضي أن تكون لغة حضارة وعلم وتعليم وتأليف، استوعبت جميع المعارف الدينية والدنيوية، منذ ما يزيد على ألف سنة ونيف، بمختلف أنواعها وبيئاتها وأجناسها. وبهذا المفهوم الواسع فإن اللغة العربية أصبحت لغة دينية منذ أن نزل بها الوحي الأمين، فانتقلت به من القومية إلى اللغة الدينية، كما انتقل به العرب من المحلية المغرقة في الانعزال إلى العالمية، عندما أصبحوا مسؤولين عن حمل هذا الدين وإبلاغه. وعندما يتقرر ذلك، فإن اللغة العربية تكون هي اللغة الجامعة لمختلف ثقافات شعوب العالم الإسلامي وأجناسه.

ومهما يكن من أمر، فإن الأصول الأولى لظاهرة التعصب اللساني سابقة للإسلام، فهي موجودة في الثقافة الغربية منذ زمن الإغريق، فالغرباء هم (برابرة) عند أهل أثينا؛ لأنهم لا يتكلمون الإغريقية. ويمكن أن نتصوَّر أن الناس حتى قبل ذلك الزمن كانوا دائمًا، في مواجهة الاختلاف اللغوي، ميّالين إلى السخرية من عادات الآخرين، وإلى اعتبار أن لغتهم هم هي الأجمل، وهي الأنجع، وهي الأدق؛ أي أنهم كانوا دائمًا ميّالين إلى تحويل اختلاف الآخر إلى نقصان فيه؛ لأن من الطبيعي أن يكون الآخر دائمًا هو صاحب الاختلاف، فما دُمتَ لا تتكلم مثلي، فإذًا أنت تتكلم بصورة مضحكة.

كان من الممكن أن نتخيَّل هذا كله، وأن نحلم بعلم لحرب لغوية في ما قبل التاريخ، ولكن النظر في واقع الثقافة الغربية يُبعدنا عن مثل هذه التخيّلات؛ لكونه يُقدِّم الوثائق الأولى لظاهرة التعصب اللساني، كما نجدها في الثقافة الإغريقية وخصوصًا عند أفلاطون في كتابه (كراتيليوس)، فهو يورد على لسان سقراط حديثًا

(١) يُنظَر: دو سوان: **كلمات العالم (منظومة اللغات الكونية)**، ص٢٦، ٣٩.

عن احتواء اللغة الإغريقية لكلمات ذات أصل أجنبي، حيث يرى سقراط أن اليونانيين وخصوصًا الذين كانوا تحت سيطرة البرابرة، غالبًا ما استعاروا منهم ألفاظًا[1]. فمع أنه يبدو لنا واضحًا أنه لا يمكن إلا أن تكون قد وقعت نزاعات من هذا القبيل، إلا أنه من واجبنا أن نكتفي بالآثار التاريخية التي خلّفتها إدارة شؤون الاختلاف في الثقافة الغربية التي تُقدِّم مصادر على هذا الصعيد لا تمضي بعيدًا.

ففي اليونان القديمة برزت معاملة خاصة للآخر من خلال تأثيل كلمة لا تزال حيّة في اللغات الحديثة، وهي كلمة: (البرابرة). فقد وجد الإغريق وسيلة مريحة لتصنيف العالم، فصنفوا كل من لا يتكلم اللغة الإغريقية؛ أي (الغرباء)، في صنف البرابرة المتوحشين، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، فقد استعار الرومان من الإغريق هذه اللفظة بمعناها؛ أي: (الغريب)، غير أن ترجمتها بـ(الغريب) تُهمل جانبًا مهمًا من المعنى؛ لأن لفظ (البرابرة) كان يعني من الوجهة التأثيلية التي تهتم بإعادة الكلمة إلى أصولها: مَن لا يتكلَّم؛ لأنه لا يتكلَّم الإغريقية، ولا يستطيع أن يُصدر إلا صوتًا هو أشبه بالضجيج منه بالكلام، أو غمغمة، أو قرقرة؛ أي باختصار شيئًا يمكن أن يكون، على سبيل السخرية، محاكاة لصوت من أصوات الطبيعة، مبني على تكرار مقطع يشبه صوتُه صوت الأطفال: (بَرْ) (بَرْ)؛ مما يُعطي (بَرْبَرْوس).

وسوف تأخذ اللغات الرومانية هذا اللفظ بهذا المعنى. فأحد المعاجم الفرنسية في القرن الرابع عشر جاء فيه: (البرابرة) هم كل من كانت لغتهم غريبة. وفي القرن الخامس عشر، جاء في كتاب عن نحو اللغة الإسبانية: "(البربرة) هي عيب لا يمكن التسامح معه في جزء من الجملة، ويُسمَّى هذا العيب بربرة؛ لأن الإغريق كانوا يُسمّون كل الشعوب (برابرة) باستثنائهم هم. وقد سمّى اللاتينيون بدورهم (برابرة) كلَّ الشعوب الأخرى باستثنائهم هم والإغريق. ولأن الغرباء الذين كانوا يُسمُّونهم (برابرة)، كانوا يُفسدون عليهم لغتهم، حين كانوا يُريدون التكلم بها، فقد سمُّوا: (بربرة) العيب

(١) يُنظَر: أفلاطون، **محاورة كراتيليوس (في فلسفة اللغة)**، ترجمة: عزمي طه السيد أحمد، عمّان، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٥م، ص١٤٣، ١٤٤.

الذي يقع في كلمة من كلامهم. ويمكن أن نُسمِّي (برابرة) جميع الغرباء عن لغتنا باستثناء اللاتين والإغريق"[١].

يظهر في هذا الاستشهاد أنه حتى وإن اتسعت رقعة غير البرابرة اتساعًا تدريجيًا – يعطي مشروعية للاتينية بعد الإغريقية، ثُمّ للإسبانية التي تُصبح في عداد اللغات المشروعة – فإن مفهوم البربرة في أصله مفهوم عرقي لتمييز اللغة الإغريقية. فالتاريخ الغربي يعج بعبارات تدل على عدم تقدير لغة الآخر، منذ زمن الإغريق إلى وقتنا المعاصر، ومثال ذلك في الإنجليزية والفرنسية عبارات يمكن ترجمتها بما يلي: (قُل كلامًا أبيض)؛ أي كلامًا صادقًا ذا قيمة، و(توقَّفْ عن الرطانة)؛ أي عن الكلام السخيف. (ما هذا الخليط العربي؟)؛ أي هذا الحديث المشوش المتنافر ...إلخ.

إن إطلاق اسم (البرابرة) على الغرباء لا يمكن إلا أن يكون مصدره النظرة الشعبية للخلاف اللغوي، فكل من لا نفهمه ولا يفهمنا هو مدعاة دائمًا للسخرية أكثر منّا، بل إننا نجد صدى لهذا التحقير عند من نُسمِّيهم في أيامنا بالمثقفين[٢].

وأمّا في الثقافة العربية فإن مصطلح (البربري) لا يتعلق بنعت سلبي أو عنصري يُمكن إطلاقه وفقًا لمعايير غير علمية على بعض اللغات، وإنما وروده قديمًا وحديثًا جاء تسمية لمجموعة من اللغات واللهجات المتعلِّقة بالتمركز الأساسي للناطقين باللغات البربرية في الجزائر والمغرب بشكل خاص، وهم الذين عناهم ابن حزم في قوله: "وإذا تعرّب البربري، فأراد أن يقول: (الشجرة)، قال: (السجرة)"[٣]. وقد جاء ذلك في معرض حديثه عن تبديل العامّة في زمانه لألفاظ اللغة العربية في الأندلس وقرطبة والقيروان وخراسان، وبذلك فإن ورود هذا المصطلح في الثقافة العربية يتعلّق بتلك الجماعة اللغوية التي تقطن تلك البقعة

(١) كالفي: **حرب اللغات والسياسات اللغوية**، ص١٠٢.

(٢) يُنظَر: كالفي: **حرب اللغات والسياسات اللغوية**، ص٦٥، ٦٦، ص ص١٠١ – ١٠٣.

(٣) ابن حزم: **الإحكام في أصول الأحكام**، ج١، ص٣١، ٣٢.

الجغرافية المحددة، ولا يمكن أن يشي بأي صبغة سلبية أو عنصرية.

وأما عتبة التعصب اللساني الغربي في العصر الحديث فإنها تعود إلى القرن التاسع عشر، فمع ازدياد قوة الحجّة التي قدَّمها القياس على علم الأحياء، ازدادت أهمية الاعتقاد بوجود جهة للتطور في وضع النظريات اللغوية. ومن فروع النظرية التي تقول بوجود جهة للتطور اللغوي، فرع ينص على إمكانية تصنيف اللغات في عدد صغير من الأنواع، وهي في العادة، وفقًا لهذا النموذج الثلاثي الذي اقترحه الإخوان شليجيل وشلايخر على النحو الآتي(١):

١. اللغات العازلة: وفيها تتألف الكلمة من جذر جامد، حيث تُركَّب الجملة من كلمات لا تتغير، وهذه الكلمات ذات مقطع واحد، لها علاقات محددة بترتيبها، ولكن دون مادة صرفية، وكثيرًا ما يُضرَب المثل على هذا النوع من اللغات بالصينية والفيتنامية.

٢. اللغات اللاصقة: وفيها تحتوي الكلمات على لواحق بالإضافة إلى الجذر مع وضوح تقسيم الكلمة إلى جذر ولواحق، فلكل منها معنى دقيق للغاية وقابل للتعيين، ويُضرب المثل على هذا النوع من اللغات بالتركية واللغة اليابانية.

٣. اللغات المتصرفة: وفي هذه اللغات تشتمل الكلمة الواحدة على عدد من وحدات المعاني، فتُركَّب الجملة من كلمات تتغيَّر، وتُعبِّر التغيرات الداخلية فيها؛ أي الإعراب والتصريف، عن العلاقات المختلفة. وتندرج لغات أوروبية جمّة في عداد اللغات المتصرفة، ولكن بدرجات متفاوتة، فتتصف اللغة اللاتينية بطابعها المتصرف للغاية، في حين تُعد الفرنسية لغة متصرفة أقل بكثير(٢).

والهدف من الأصناف الثلاثة هو استعمالها كنماذج مثالية للغات مع الاعتراف بأن اللغات الحقيقية تتوزع ضمن حدود هذا التقسيم. وقد أُقيمت براهين عديدة على

(١) يُنظَر: سامسون، جفري: **مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)**، ترجمة: محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤١٧هـ، ص١١.

(٢) يُنظَر: مالبرج: **مدخل إلى اللسانيات**، ص٢٨٥.

أن تصنيف اللغات على أساس نمطي بنيوي، يُعدُّ أمرًا ممكنًا في البداية، إلا أنه صعب التحقيق تفصيلًا في الوقت نفسه، ويُصبح في حالات عديدة أمرًا تعسُّفيًا(١).

ولا تكمن المشكلة هنا في هذا التصنيف أو غيره، ولكن في إسقاط كل نوع منه على سُلَّم طبقات التطور الحضاري والفكري، كأنْ يُقال مثلًا: إن اللغات العازلة تتطابق مع المرحلة الأُسرية، واللغات اللاصقة مع مرحلة البداوة، واللغات المتصرفة مع المرحلة السياسية للمجتمعات(٢). فقد كان ميدان البحث اللساني في ذلك الوقت يخضع لنظرية ترى أن اللغات تمر بحالات ثلاث على التتابع: حالة العزل، وحالة الإلصاق، وحالة التصريف. وكان من المسلَّم به أن كل لغة من اللغات المعروفة كانت على إحدى هذه الحالات الثلاث وفقًا لمرحلة التطور التي تمر بها. ومعنى ذلك أن هذه النظرية كانت تسعى إلى حصر التقدم اللغوي في النظام الصرفي(٣).

وقد كان الرومانسيون الألمان من علماء اللسانيات يُلاحظون منذ ذلك العصر ميزة اللغات الكبرى في الغرب، وهي كلها مُتصرفة. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، ادعى شلايخر (١٨٤٨م) أن تاريخ اللغات القديم يشتمل على تطور منتظم من العَزْل إلى اللصق ومن ثم إلى التصريف، وأن هذا هو تطور من النقص نحو الكمال. وهنا يذهب شلايخر إلى أن تطور اللغة واكب في أغلب الظن تطور الفكر، حيث وصلت اللغة مع الفكر حد الكمال(٤).

ولكن حتى في تلك الآونة كان من الشاق التوفيق بين هذه الفرضية ووجود اللغة الصينية؛ إذ كان من العسير القول إن لغة كونفوشيوس (٥٥١ – ٤٧٩ ق.م)

(١) يُنظَر: مالبرج: **مدخل إلى اللسانيات**، ص٢٨٦.

(٢) يُنظَر: مونان، جورج: **علم اللغة في القرن العشرين**، ترجمة: نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٢م، ص٢٤٢.

(٣) يُنظَر: فندريس، جوزيف: **اللغة**، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص٤٢٣.

(٤) يُنظَر: سامسون: **مدارس اللسانيات**، ص١٢.

كانت اللغة الأكثر تخلفًا في تاريخ البشرية![1] وهكذا ثمة اعتراضات واضحة ومهمة على هذا، فلو أن شعبًا بمثل ذكاء الشعب الصيني يمكنه أن يتدبّر أمره بلغة كانت، على الأقل في مرحلة التأريخ، مغرقة في العزل تقريبًا، فمن أين لنا أن نعلم بحاجة الإنسان إلى تطوير لغات متصرفة لكي يُحقِّق قدراته الفكرية؟ وإلى أي مدى نستطيع أن ندمج اللسانيات بعلم الأحياء، إذا كان تاريخ اللغات المكتوب لا يُبيّن سوى التراجع بدلًا من التقدم[2]. ونتيجة لذلك لا يوافق كل من ناقش تصنيف اللغات على أن اللغات المتصرفة كانت في الواقع (أفضل) أو (أسمى) من اللغات العازلة.

مظاهر التعصُّب اللساني ضد العربية:

للتوسُّع في ظاهرة التعصب اللساني سوف نستقصي جانبًا من مظاهرها التي مُورست ضد اللغة العربية في الأوساط الغربية، وستُرَكِّز الدراسة هنا على الدعاوى المتعلقة بالأثر المتبادل للبنية العقلية على البنية اللغوية والعكس. وهدف الدراسة في كلا المنحيين هو دفع تلك الدعاوى بموضوعية علمية مُنبنية على أحدث المناهج التي توصلت إليها الاتجاهات اللسانية المعاصرة في الغرب. وإنْ كان لبعض هذه الدعاوى حظ من المصداقية، فسنُبيّن أن ذلك لا يَصِم اللغة العربية وحدها؛ إذ إن لها مشابهات أساسية في اللغات الأوروبية المعروفة. فهنالك مجموع نموذجي متوسط للغات قد يجعل من بعضها مرآة للأخرى، وحافز محاولة التقريب هذه هو أن الصورة النمطية للعربية كثيرًا ما تتعرض لسوء فهم كبير.

ويجب التنبيه إلى أن مثل هذه المزاعم، التي سنرصدها الآن تباعًا، قد جاءت متفرقة في كتب الباحثين الغربيين ودراساتهم، ومن الغريب أن يعمد كثير من الباحثين إلى الحكم على اللغة العربية بناء على جزئية واحدة يرون فيها مظهرًا من مظاهر عدم كمالها، ففكرة الكمال لا يمكن تبريرها، إذا أردنا تطبيقها على جزء واحد من أجزاء

(١) يُنظَر: بيك، باسكال وآخرون: **أجمل قصة عن اللغة**، ترجمة: ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩م، ص١٣٠.

(٢) يُنظَر: سامسون: **مدارس اللسانيات**، ص١٣.

اللغة، كالأصوات مثلًا أو التراكيب النحوية أو الصرفية. فبعض اللغات تمتاز عن بعضها الآخر بالانسجام والعذوبة، ويمتاز بعضها عن غيره بسهولة النطق. ومع ذلك فإن تقدير هذه المزايا يرجع إلى حدّ كبير إلى الذوق الشخصي، ومن ثم يدخل في المناقشة عنصر ذاتي من شأنه أن يُزيّف المسألة من أساسها(١).

(١) يُنظَر: فندريس: **اللغة**، ص٤٢٢.

المبحث الأول: القصور العقلي:

تُتَّهم العربية، في جانب من النقد الموجَّه إليها، بأن لها تأثيرًا على نفسية العربي، ويتمحور ذلك الجانب حول عدد من الأحكام اللاذعة التي تَسِمها بأنها قاصرة وتؤدّي إلى شلّ فكر مُتكلِّميها[1]. وهذه الأحكام في حقيقة الأمر مختصرة، وتقوم على احتجاج ضعيف، ربما لا يستحق أن يُؤخذ على محمل الجد أو أن يُسجَّل ضده أي ردود، بَلْه أن نتصيَّد أي قصور عقلي قد يجده المرء بسبب من وجودها. ولكن بما أنها تُمثِّل حالة معاصرة مدهشة للمعالجة التي تنظر إلى اللغة كأنها سجن، وتتسم بافتراض بعض العلاقات التي تبدو واضحة بشكل كاف؛ مما يُحرِّض على تصديقها.

فعُمق انفصام الشخصية العلمية المتزايد في بعض دوائر البحث يجعلها تأخذ طابع المسلمات التي يصعب هزُّها، وسنذكر الآن بعض النقاط التي انبنى عليها هذا النقد الجائر:

أ. **اللَّبْس وغموض المعنى:** يُشير (ي. شوبي) إلى أن هنالك غموضًا عامًا في الكلمات والجمل العربية، ولهذا الأمر انعكاس على ذكاء العربي، فالملاحظون المثقفون من الأجانب في الأقطار العربية لا يفهمون السبب الذي يجعل العربي الذي يبدو على مستوى عال من الذكاء في مجال تخصصه لا يُبِين عن مثل هذا المستوى من الذكاء فيما يخص الحقول المجاورة أو الحقول الأخرى عمومًا. وهكذا فإن غموض العربية أمر لا يمكن للفرد أن يتغلَّب عليه إلا بالتدريب المتخصص وحده، بل لا يمكن أن يتجلَّى إلا في ذلك المجال الدقيق الذي تخصص فيه.

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٥٩. يتضمّن مقال (ي. شوبي): "تأثير اللغة العربية على نفسية العرب" عددًا من الأحكام اللاذعة المختصرة. ونُشِر هذا المقال أوّل مرة في مجلة الشرق الأوسط في سنة ١٩٥١، وبما أنه كان يبدو مؤثِّرًا، أو مثيرًا في الأقل، فقد أُعيد نشره عام ١٩٧٠ في كتاب يحوي مجموعة من المقالات، حرّره عبد الله لطيفة وتشارلز تشرشل، بعنوان: "قراءات في المجتمعات والثقافات العربية في الشرق الأوسط". وقد استنكر إدوارد سعيد هذا المقال استنكارًا شديدًا، ولكنه لم يدحضه في الحقيقة.

وبحسب هذا الادّعاء، فهذه مشكلة مألوفة لدى العرب، وذلك لأسباب منها: أولًا: الغموض الأصلي للمعنى الذي لا تزال الكلمات تُحافظ عليه، وثانيًا: تراكم المعاني عبر قرون من الاستعمال الكتابي، وثالثًا: تفاعُل الكُتَّاب والبلدان العربية مع التأثيرات الخارجية بصورة مختلفة. أما النقطة الأولى، فلا تزيد عن كونها افتراضًا، بل هي أمر مشكوك فيه، خاصة حين نلتفت إلى ما نعرفه عن التغيُّر الدلالي. وأما التراكم التعاقبي نفسه فينتج عنه بعض الدقة التي لا تتحوَّل إلى غموض، إلا إذا انحلّت الثقافة الأدبية نفسها، فتتضمن الكلمة الواحدة علاقات بالغة الدقة من المعاني المتقاربة، لكن المتكلم المتوسط لا يستطيع أن يلحظ أي فروق دقيقة بينها، فيستعملها بوصفها كلمة واحدة لها معنى واحد. وأما النقطة الثالثة، أي التشرذُم، فيمكن القول: إنها ليست إلا ادّعاء مختصرًا عن العربية الأدبية المعاصرة في تقابلها مع العربية في عصور الازدهار العربي؛ إذ كانت اللغة العربية، على الرغم من امتدادها من البرتغال إلى أواسط آسيا، لغة مُوحَّدة بشكل يُثير الإعجاب(١).

ب. **القصور التركيبي**: يتمثَّل القصور التركيبي للغة العربية من وجهة نظر الباحثين الغربيين في ناحيتين(٢):

أولًا: بُعد البنى التركيبية عن البنى العقلية: لقد فصل الباحثون بين وظيفتَيْ اللغة: التواصلية والتمثيلية، وزعم فريدريك همبولت (١٧٦٧ – ١٨٣٥م) أن التمثيل، الذي هو نوع من المحاكاة المادية للفكر، هو الوظيفة الأساسية للغة في تاريخ الإنسانية. فاللغة لديه ليست أداة للتواصل فقط، ولكنها تعبير عن العقل وعن متصور المتكلمين للعالم، فالعيش في مجتمع ما يُعدُّ مساعدًا لا غنى عنه لتطورها، ولكنه ليس الهدف الذي تميل إليه على الإطلاق. فجهد العقل وحده يُمثِّل ذاته بذاته

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص ص٥٩ – ٦١.

(٢) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٦١.

وينتمي إلى جوهر اللسان، وأما التواصل فليس سوى وظيفة ثانوية(١).

ولذلك يرى همبولت أنه لفهم العلاقة المتبادلة بين اللغة والعقل، ومن ثَمَّ معرفة القدرة الفكرية لدى الشعوب التي أوجدتها، لا بد أن يُكشَف، عند النظر في أي لغة، عن بنية معينة من بين جميع البنى، تكون أكثر انسجامًا مع أهداف اللغة التمثيلية، وبذلك نستطيع أن نزن فضائل كل لغة، وعلينا أن نعترف أن واحدة من هذه اللغات تزداد حيوية بمبدأ النمو الذهني النافع جدًا.

وهكذا يجد همبولت ما يُسوّغ له وضع معيار يحكم به على محاسن اللغات ومساوئها الموجودة وفقًا للدرجة التي تقترب بها تلك اللغات من البنية التركيبية التي تعكس البنية العقلية بأصدق صورة، ولما ظهر له أن تلك البنية أفضل في لغة منها في لغة أخرى، فإنه استطاع أن يحكم بأن تلك البنية تمتاز في اللغة السنسكريتية عمّا في اللغة الصينية، وهي أفضل في اللغة اليونانية منها في اللغة العربية، وذلك، بحسب قوله، ما لا يمكن معارضته لدى الباحث النزيه!(٢). إنَّ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية نتاجًا لأسباب واحدة، وأن تكون المميزات التي تُميِّزها واحدة دون أن يترتَّب على ذلك صدور إحداهما من الأخرى. فإذا كانت اللغة علامة مميزة لصورة من صور التفكير، فإنه من الممكن أن نصل بتحليل مقارن للغات إلى سيكولوجية للأجناس.

هذه هي الفكرة التي ينطلق منها همبولت، وفي بدايات القرن العشرين عاد علماء اللغة إليها محاولين تكميلها، وفي رأيهم أنه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات إلا بوصفها آثارًا مُعبِّرة عن عقلية الشعوب. وأن اللغات ليست إلا تصويرات، لا تُقدِّم أمام عين العالم السيكولوجي أي حقيقة واقعية ملموسة. وإن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة؛ إذ يجب أن تُطبَّق عليها طريقة ذاتية محضة بألا

(١) يُنظَر: ديكرو: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ص٦٨٩.

(٢) يُنظَر: هاريس، روي وتيلر، تولبيت: **أعلام الفكر اللغوي (التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير)**، تعريب: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ٢٠٠٤م، ص٢٢٤، ٢٢٥.

نبدأ من اللغة التي ليست إلا نتيجة، بل من العقل الذي يخلق اللغة. هذه الطريقة، من وجهة النظر هذه، خير الطرائق لدراسة بعض نتاج النشاط النفساني كالمعتقدات الشعبية، وهي نفس الطريقة المتبعة في دراسة الخوف أو الحلم أو الإيمان. وها نحن أولاء بهذا الرأي قد ابتعدنا عن علم اللغة.

ولكن يمكن أن نجيب همبولت ومن بنى على فكرته، بأن اللغة حقيقة واقعة مهما كانت الحال. فاللغة بصوتياتها وبكيانها الصرفي لها وجود خاص مستقل عن استعدادات المتكلم النفسية، واللغة تفرض نفسها عليه في صورة نظام قد أُعِدَّ من قبل، في هيئة آلة وُضعت في يده. وهو يستعملها لغايات شتى: فيستعملها في حاجات سوقية أو يستخرج منها آثارًا تدلّ على الحذق وتدعو إلى الإعجاب. ولكنها في كل الحالات آلة واحدة بعينها، ومُهمَّة اللساني هي بالضبط أن يدرس ما في هذه الآلة من جوهري ودائم.

ومن ثَمَّ كانت الطريقة الموضوعية صالحة للتطبيق في علم اللغة تمام الصلاحية، واللغة في وسعها أن تُدرَس مستقلة عن العقلية. فضلًا عن ذلك فليس من المؤكد أن الأسباب التي تؤثِّر على اللغة تُحدِث في العقلية آثارًا مماثلة. فالأجزاء الجوهرية الدائمة في اللغة تتحوَّل وفقًا لقواعد ليس للعقلية فيها أي نصيب. وهذا بالذات هو ما أدّى إلى الافتراض بأن للغة حياة مستقلة عن كل حياة نفسية أو فسيولوجية أو اجتماعية. والواقع أن الفروق التي نلاحظها في فترة ما من التاريخ بين لغتي شعبين، حتى ولو كانتا من أصل واحد، يمكن تفسيرها بظواهر لغوية خاصة بتطوّر كل واحدة من اللغتين، وبالتالي لا تسمح لنا بحال أن نصدر حكمًا ما على عقلية الشعبين(١).

ثانيًا: صرامة نحو اللغة العربية وصرفها: يرى (شوبي) أنه حين تُقارَن العربية بالإنجليزية أو الألمانية، وهما لغتان تتميَّزان بكثرة قواعد التحويل والدمج والجمل المعترضة، لا تبدو العربية غنية بأنواع الجمل. وأما النحو الذي يُعبِّر عن الأفكار في

(١) يُنظَر: فندريس: **اللغة**، ص ٢٩٩، ٣٠٠.

العادة بوسائل شبه معجمية، فيمكن أن يكون أكثر صعوبة، فقد تغلَّبت الإنجليزية على فقرها الاشتقاقي بتطوير النحت تطويرًا كبيرًا، بخلاف العربية التي يمنعها قصورها التركيبي من تطوير ذاتها(١).

ولا يعلم المرء من أي مكان جُلِب هذا النقد، وعلى أي أساس بُني، فمعظم من درس النحو العربي من غير العرب، رأى أن شبكة العلاقات بين قواعد اللغة العربية هي قوية البنيان وشديدة الوضوح، مما يُتيح لمستعملها التعبير بها عن أي فكرة على نحو دقيق، وبشكل يُميِّزها عن الأفكار الأخرى. وقد انعكس ذلك على الدرس النحوي العربي الذي يتميز بشهادة بعض الدارسين الغربيين باستقصاء وإتقانٍ أكثر شَبَهًا بالدرس الذي أُنجز في اللغة السنسكريتية منه بما حدث في اللغات الرومانسية، ويعود ذلك إلى مركزية النصوص المقدسة.

ويمكن الردّ على ذلك الادّعاء بالقول: إن صرامة النحو العربي، إن كان ذلك صحيحًا، هي فكرة مختصرة وممتازة ويمكن أن تُعدَّ في صالح العربية؛ لأنها غير مُقنعة بوصفها قيدًا على الفكر، فهل ستكون العربية أحسن حالًا لو كانت تمتلك نحوًا مُتسيِّبًا؟! ولنأخذ على سبيل المثال الترتيب الصارم بين (النعت) و(المنعوت)؛ إذ لا يمكن في العربية إطلاقًا أن نُغيِّر الترتيب بينهما: (المنعوت + النعت)، حتى وإن كان ذلك من أجل التوكيد كما يحدث في الفرنسية مثلًا. لكن هذا الترتيب لا يُشعر بأنه صارم، بل هو سهل على السامع، ولا يوجب على المتكلم أن يختار بين احتمالات لا حاجة لها.

ومثل هذا الادّعاء لو اتصفت به أي لغة بشكل حقيقي، فإنها ستتغلب عليه من مُؤلَّف إلى مُؤلَّف ومن عقد إلى آخر، ويمكنها أن تتغلب عليه أيضًا بأبسط السبل، فتُصبِح أكثر كفاءة للتعبير عن الفكر إنْ أحسنت استخدام علامات الترقيم المعاصرة استخدامًا مُطَّردًا. وأما في مجال الصرف، فإن اللغة العربية قد ورثت رصيدها الغني على مستوى الصرف تحديدًا، وهو الذي يتميَّز بالصرامة لكنه مطواع(٢).

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٦١.

(٢) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص١٩، ص٦١، ٦٢، ص٣٨٨.

ج. **التخلُّف الحضاري**: يعترف العلماء بأن هناك عنصرًا عقليًا يتدرَّج شيئًا فشيئًا في تطور اللغات حتى ينتهي بالغلبة. فهم يربطون التطور اللغوي بالمدنيّة، ويُبيّنون، بيقين تامّ، في أي اتجاه تسير اللغة: فهي تسير من المشخَّص إلى المجرد. فلغات المتوحشين والبدائيين مفعمة بفصائل التشخيص والتخصيص، أما لغات المتحضرين والمتمدنين، فلا يكاد يوجد فيها إلا الفصائل التجريدية! وإن وُجدت الفصائل التشخيصية، فهي في سبيل الانقراض(١).

ولذلك ترى الطريقة التي تتلاشى بها الفصائل التشخيصية من اللغات تُعضِّد أهمية الدور الذي تلعبه المدنيّة هنا، ومن أوضح الأمثلة على ذلك هي حالة (المثنى). فاستعمال المثنى في اللهجات مرتبط بدرجة المدنيّة: واللهجات التي فقدت هذا (العدد) منذ فترة ما قبل التاريخ هي اللهجات نفسها التي كان يتكلمها أكثر الناس ثقافة. وعلى هذا فالاحتفاظ بالمثنى يبدو كما لو كان دليلًا على حضارة متأخرة، واختفاؤه على العكس من ذلك يدل على تقدم الحضارة.

فتاريخ معظم اللغات يؤيد ذلك؛ تؤيده المجموعة الهندو أوروبية، وكذلك اللغات السامية وغيرهما من المجموعات اللغوية الأخرى. فاللغات التي تُعدُّ من أقدم اللغات السامية تقدُّمًا؛ لغات الحضارة القديمة كالأشورية والعبرية والآرامية والحبشية، لم تعد تستعمل المثنى إلا في بعض كلمات ذات دلالة مزدوجة، أما اللغة العربية، التي كانت حتى القرن السابع الميلادي لغة بدو ذوي حظ يسير من الحضارة، فقد احتفظت بالمثنى في الاسم والضمير والفعل، ولذلك يذهب هؤلاء العلماء إلى أن درجة الحضارة تُحدد درجة الاحتفاظ بالمثنى في تاريخ اللغة العربية. وإذا هبطنا درجات في سُلَّم الحضارات، وجدنا لغات تستعمل المثلث، كما هي الحال في لغات بعض الشعوب الأمريكية أو الأسترالية(٢).

(١) يُنظَر: فندريس: **اللغة**، ص١٨، ١٩.

(٢) يُنظَر: فندريس: **اللغة**، ص٤٢٩، ٤٣٠.

ومما يحتاج إلى التنبيه أننا حين ندرس هنا العمليات النفسية التي تعد العدة للغة، فإننا نغض النظر عن الظروف النحوية التي تتكون فيها اللغة؛ لأنهما شيئان تجب العناية بالتفرقة بينهما. إن ضعف التشخيص لا يحول دون التعقيد النحوي. وليست هناك أي صلة تُقام بين طبيعة أطوار النفس وبين العدد أو بين ما في الفصائل النحوية من تعقيد.

فالفصائل النحوية تعتمد قبل كل شيء على الذاكرة. والذاكرة عند البدائيين نامية عادة نموًا كبيرًا. فقد فرضتها عليهم حاجات كبيرة الأهمية وضرورات حيوية بالنسبة لهم. فنشاطهم العقلي لا تعاونه تلك الطرائق العديدة التي تحل في سهولة ويسر عند المتحضرين محل الذاكرة، وتورِّثها الكسل دون أي ضرر في ذلك. مع أننا نشاهد بعض لغات غير المتحضرين قد مُلئت بالصيغ المتنوعة، وظلت بهذا الوضع زمنًا طويلًا جدًا، فنُظُمها الصرفية شديدة التعقيد أو أن مفرداتها كثيرة الثراء، ومثل هذه اللغات مرتبطة دون شك بتطور عجيب للذاكرة. ومن الطبيعي أن تكون الذاكرة محافظة، وعلى هذا فليس البناء النحوي هو الذي يُعبِّر عن آثار اختلاف الحضارة، وإنما يكون ذلك في العناية التي يُعبّر بها عن التفصيلات المشخصة. فهناك رابطة بين درجة الحضارة والطابع المشخص إلى حدّ ما لأطوار النفس(١).

فالتحريات حول تأثير اللغة على الذاكرة لا زالت في بدايتها كمشروع علمي جاد، فقد جرت دراسة مجالات عديدة في الآونة الأخيرة، بيد أنها لم تُقدِّم أدلة مقنعة بشكل كاف لتعزيزها. وأحد هذه المجالات هو تحديد صيغ الجمع. فبينما تتطلب اللغة الإنجليزية من متحدثيها تحديد الفرق بين المفرد والجمع عند ذكر أي اسم، فهناك لغات لا تفرض مثل هذا بشكل روتيني. وقد جرى افتراض أن ضرورة تحديد صيغ الجمع من عدمها تؤثر في أنماط الانتباه والذاكرة للمتحدثين. وعلى رغم احتمال

(١) يُنظَر: فندريس: **اللغة**، ص٤٣١.

صحة هذا الافتراض نظريًا، فإنه لم يجرِ تقديم أي أدلة دامغة على ذلك بعد[١].

د. عدم النضج: يتّهم (شوبي) اللغة العربية بعدم نضجها، فهي لا تُسعِف المتكلمين بها أن يقرأوا المواضيع العلمية المعاصرة من خلالها، بل إن من اللافت للنظر أنه حتى عندما لا يُجيد العربي اللغة الإنجليزية إجادته للعربية، فإنه يُفضِّل بالرغم من ذلك أن يقرأ المواضيع المهمة بالإنجليزية.

وفي الحقيقة إن هذا الأمر لا يقتصر على العرب، فبعض الأوروبيين الذين درسوا النحو التحويلي أو الهندسة ربما يفضلون القراءة عن هذه المواضيع باللغة الإنجليزية. وهذا لا يعني تفوُّق بنيوي لازم للغة الإنجليزية على اللغة العربية أو اللغات الأوروبية، وإن كان في الحقيقة يشي بتفوُّق معجمي مُؤقَّت. إن المجموع غير المتناهي من الوحدات البنيوية يُكوِّن معجم اللغة، ويمكن لهذا المعجم أن يتجاوز المائة ألف وحدة في اللغات التي لها تاريخ طويل. وإن المتكلم البالغ ليستعمل بلا صعوبة عدة آلاف. وإنْ يكن المرء (عالمًا)، فهذا يعني في جزء منه زيادة العدد، كما يعني الهيمنة على الاستخدام[٢].

فلغات العالَم كلها تسمح بغض النظر عن الإثنية التي تنتمي إليها، بقول كل ما نودّ قوله، فصحيح أن لغات الصيادين البابويين تفتقر إلى معجم المفردات الإدارية، وكذلك إلى معجم المفردات المعلوماتية، ولكن ذلك لا يُعدُّ نقصانًا فعليًا؛ إذ يمكن اقتراض مفردات المعجم أو ابتكارها. ففي بعض المعاجم كلمات اصطناعية، وهو إجراء مبتكر في الاختراع غير مشروط. ويمكن تفسير نجاحها بخاصيتين، وقياسه وفق معيارين: فهي، أولًا، تُشبِع رغبة ما حين ينتمي المفهوم أو الغرض الذي تُشير إليه إلى البيئة المحيطة من دون أن يكون قد اكتسب اسمًا. وهي، ثانيًا، لا تنتهك البنى التي

(١) يُنظَر: دويتشر، غاي: **عبر منظار اللغة (لِمَ يبدو العالم مختلفًا بلغات أخرى؟)**، ترجمة: حنان عبد المحسن مظفر، سلسلة عالم المعرفة (٤٢٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠١٥م، ص٢٥٨.

(٢) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٦٣.

اعتاد عليها المتكلمون. ومن جهة أخرى، يقبلها الجمهور وأسياد الإعلام المرئي والمسموع، وفي أحسن الأحوال ينسى الناس أصلها المصطنع أو يجهلونه(١).

ويمكن كذلك استغلال الأدوات التقليدية بمهارة في إغناء المفردات: من استعارة داخلية (من اللغة الأُمّ) لألفاظ علمية، واستعارة خارجية (من لسان ذي نفوذ)، ومن صناعة محلية عن طريق التأليف أو الاشتقاق (وخاصة بالإلصاق أو بحذف أول الكلمة أو آخرها)، ومن توسيع؛ أي إضافة معنى جديد أو أكثر إلى معنى آخر مرتبط سابقًا بمعنى موجود. وهناك مجامع مُؤلَّفة من اختصاصيين، تُعيد استخدام هذه الطرائق، ابتدعت وما تزال تبتدع مفردات تقنية قادرة على تلبية الطلب الواسع لكلمات يفرزها التطور الكبير للمعارف وللقدرات البشرية(٢).

ولتبسيط ذلك نقول: إذا حاولت مثلًا أن تُترجم دليل استخدام غسالة الأطباق إلى لغة قبيلة جبال البابوا، فسرعان ما ستجد نفسك عاجزًا عن ذلك، فليس هناك مرادف لكلمة شوكة أو طبق أو كأس أو أزرة أو مسحوق غسيل أو برامج شطف أو مؤشرات خلل. لكن ما يُعيق فهم شعب البابوا لهذه المفاهيم ليس طبيعة لغتهم، بل لأنهم وببساطة، لم يتعرفوا على تلك المنتجات الحضارية. لكن الوقت كفيل بأن يُمكِّنك من شرح جميع هذه الأمور إليهم بلغتهم الأصلية.

وعلى المنوال نفسه إذا حاولت أن تُترجم مقدمة في علم الميتافيزيقا أو الطوبولوجيا الجبرية، أو حتى مقاطع من الإنجيل إلى لغة البابوا، فلن تستطيع الاستمرار في ذلك؛ لأنك لن تجد مفردات مرادفة لأكثر المفاهيم المجردة المطلوب ترجمتها. غير أنك تستطيع أن تُكوّن مفردات لمثل هذه المفاهيم المجردة في أي لغة، إما باستعارتها من لغة أخرى، أو بتوسعة استخدام المفردات الموجودة لتشمل معاني مجردة. وقد استخدمت اللغات الأوروبية الطريقتين.

(١) يُنظَر: حجاج، كلود: **إنسان الكلام (مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية)**، ترجمة: رضوان ظاظا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٢٥٤.

(٢) يُنظَر: حجاج: **إنسان الكلام**، ص٢٥٤، ٢٥٥.

وتلك الدعاوى الجريئة بإمكانية التعبير عن الأفكار المعقدة نظريًا بأي لغة، ليست مجرد آمال عريضة، فقد جرى إثباتها عمليًا وبشكل متكرر، ليس على دليل تشغيل غسالات الأطباق أو كتب الميتافيزيقا بخاصة، بل طُبِّقت مرارًا على الإنجيل الذي يحتوي على موضوعات دينية وفلسفية بدرجة عالية جدًا من التجريد. وإذا كنت لا تزال مشدودًا نحو النظرية التي ترى أن مخزون المفاهيم الجاهزة في لغتنا الأُمّ يُحدد المفاهيم التي نستطيع إدراكها، فاسأل نفسك ببساطة: كيف يتمكن أي شخص من تعلم مفاهيم جديدة إذا صدقت النظرية؟[١] فالتركيب إذ يبدو أحيانًا نظامًا مغلقًا يسم وجود أي لسان، فإن ذلك يعود جزئيًا إلى جمود في المفاهيم عبر الزمن، غير أن الإنسان لا يتكلم لتطبيق أو تمثل قواعد التراكيب، وإنما يتكلم لينقل معنى ما[٢].

وهكذا فإن المستوى المفرداتي هو أكثر مستويات اللغة عرضة للتنوع، ذلك أنه خلافًا للمستويات الأخرى، ليس نظامًا مغلقًا، فالكلمات يمكن تبنّيها أو نقلها أو تبديلها بكلمات أخرى، دون تبعات أساسية تلحق بالتركيب اللغوي أو عوائق في التخاطب[٣].

ففي المستوى المفرداتي ينبغي إعطاء شيء من الأهمية للخلفية العميقة للإدراك الذي يظل في تحول دائم، ومن هنا رُفِضت السيرورات الدلالية القائمة على النموذج الثابت واللساني المحض للمعجم، فتأويل الكلمات يُشكِّل عُمقًا لموسوعة متعددة الأبعاد وفعالة وتغتني من كل فعل تأويلي جديد[٤]. وحتى مع توفّر نجاح الإصلاح

(١) يُنظَر: دويتشر: **عبر منظار اللغة**، ص١٦٩، ١٧٠.

(٢) يُنظَر: حجاج: **إنسان الكلام**، ص٢٨١.

(٣) يُنظَر: ديورل، مارتن: **اللغة انتماء جغرافي**، ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد٣ (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٢١هـ، ص٩٣٦.

(٤) يُنظَر: ديكرو: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ص٢٠١.

المعجمي، فهو لا ينال سوى الأقسام الأقل بناء. ومما لا شكّ فيه أن علم تراكيب البنى قد ساهم في المداخلات، إلا أن مداخلاته كانت محافظة أكثر منها إصلاحية؛ لأن معظم الحالات المعروفة هي عبارة عن إحياء(١).

ومع ذلك، تسمح لغاتهم كلها، من حيث البنية، بالإدلاء بأي فكرة مهما تكن، ودليل ذلك أن كل شيء قابل للترجمة من لغة إلى أخرى(٢). فسمة الترميز اللغوي واضحة بشكل خاص في الترجمة، حيث يهتم المرء بإيجاد نظائر مناسبة بين اللغة الأولى واللغة الثانية، فعلى مُترجمي (الكتاب الأحمر الصغير) لرئيس الحزب الصيني (ماو) إلى اللغة السواحلية، على سبيل المثال، أن يُنتجوا مجموعة كاملة من الكلمات الجديدة، ابتكارًا أو اقتراضًا، كي ينقلوا التعابير السياسية الخاصة بالشيوعية الصينية؛ لتُصبح الكلمات المبتكرة وغير المتوقعة شائعة ومنتشرة في اللغة السواحلية(٣).

(١) يُنظَر: حجاج: **إنسان الكلام**، ص٢٥٧.

(٢) يُنظَر: بيك: **أجمل قصة عن اللغة**، ص١٣١.

(٣) يُنظَر: بولوم، إيدجر: **اللغة والسلوك (اللغويات الأنثروبولوجية)**، ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب: (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثاني (مجال اللغة الأوسع)، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٢١هـ، ص٤٦١. وليس الغرض من الترجمة العلمية للكلمة تقديم مُعادِلها التقريبي الذي يفي بالأغراض العملية، بل الغرض من ذلك أن يُبيّن بدقة: أتُناظِر كلمة محلية فكرة موجودة، ولو جزئيًا، عند الذين يتحدَّثون الإنجليزية، على سبيل المثال، أم تتناول تصوُّرًا أجنبيًا تمامًا؟ وكون هذه التصوُّرات الأجنبية موجودة في اللغات الأجنبية، بعدد كبير، أمر واضح. فجميع الكلمات التي تصف النظام الاجتماعي المحلي، وجميع التعبيرات التي تُحيل على اعتقادات محلية، وعلى عادات واحتفالات وطقوس سحريّة مخصوصة – جميع ما كان نحو هذه الكلمات من الواضح أنه لا وجود له في الإنجليزية كما أنه لا وجود له في أي لغة أوروبية. ومثل هذه الكلمات لا يمكن أن تُترجَم إلى الإنجليزية باللجوء إلى معادلاتها المتخيَّلة – فمن الواضح عدم إمكان إيجاد المعادِل الواقعي – بل بإيضاح معنى كل منها من خلال وصف إثنوغرافي دقيق لعلم اجتماع هذه التجمعات المحلية وثقافتها وتقاليدها. يُنظَر: أوغدن، تشارلز كي وريتشاردز، آنفر =

فوضعية الكلمات كثيرًا ما تحمل شكلًا خارجيًا معينًا لا تستطيع أي ترجمة التعبير عنه. وبهذا المعنى قد تكون إحدى اللغات أكثر تهيؤًا من غيرها لخدمة أغراض معينة، إلا أن هذا لا يعني أن إحدى اللغات أغنى أو أفقر جوهريًا من غيرها. ويمكن افتراض أن كل اللغات الحيّة هي بطبيعتها أنظمة اتصال فعالة، ومع تغير حاجات المجتمع الاتصالية فإن لغة هذا المجتمع نفسها سوف تتغير لتلبية هذه الحاجات الجديدة، وسوف تتسع مجموعة المفردات، إما بالاستعارة من اللغات الأخرى أو بخلق كلمات جديدة من الكلمات الموجودة(١).

ولا يعني افتقار ما يُسمَّى أحيانًا بـ(لغات العالم المتخلف) إلى كلمات تدل على مفاهيم العلم والتكنولوجيا الحديثة ومنتوجاتها المادية، أنَّ هذه اللغات بدائية أكثر من اللغات التي تحتوي على مثل هذه الكلمات، إنَّ هذا يعني ببساطة أن بعض اللغات لم تُستَعمل حتى الآن، على الأقل، من قِبَل أولئك المشتغلين بتطوير العلم والتكنولوجيا(٢).

وإن كان لا يُستغرَب أن تُقرأ النظريات المعرفية والتخصصات التقنية بلغة المناخ الذي نبتت فيه الأفكار المتعلِّقة بها، فإن الذي يُستغرَب، ويصل إلى حد الدهشة، أن يُبدِع كاتب أو أديب في الكتابة بلغته الأُمّ، كحالة الكاتب المسرحي الإيرلندي

=

آرمسترونغ: **معنى المعنى (دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية)**، ترجمة: كيان أحمد حازم يحيى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، د.ت.، ص٤٥٢.

(١) وفي الحقيقة إن هذه العملية تُعدُّ تحويرًا لما هو موجود وليس خَلْقًا، فالقدرة على خَلْق الكلمات ليست إلا نوعًا من الخداع، فاللغات تسير على تحوير العناصر الموجودة لا على الخلق. يُنظر: فندريس: **اللغة**، ص٢٩٤.

(٢) يُنظَر: ليونز، جون: **اللغة واللغويات**، ترجمة: محمد إسحاق العناني، مؤسسة ربي للنشر، عمّان، ١٩٩١م، ص٦٤.

صمويل بيكيت (١٩٠٦ – ١٩٨٩م) أو الروائي الكولومبي غابرييل ماركيز (١٩٢٧ – ٢٠١٤م)، وتجده مع ذلك يُفضِّل أن يَقرأ أعماله بترجماتها الإنجليزية.

ولا ريب أن أسباب هذه الظاهرة لا تعود إلى أن فشل الترجمة من الإنجليزية إلى العربية أو نجاحها من الإسبانية إلى الإنجليزية هو من أسباب تفضيل اللغة الإنجليزية على غيرها من اللغات، فيُقال مثلًا: إن فشل الترجمة العربية في التعبير عن طريق التوكيد والمبالغة لتوصيل ما يؤدَّى في الإنجليزية بوسائل بسيطة هو مظهر من مظاهر عدم نُضج العربية، فمثل هذا القول لا يصح بأي حال، ففي اللغة العربية مصادر غنية لمساعدة المترجم، إذا ما رغب في القيام بذلك على وجه التحديد، وما نقرأه ونطالعه كل يوم من الترجمات العربية الرصينة خير دليل على ذلك[١].

هـ. كثرة المبالغات والتوكيدات: تُشير هذه النقطة من الدعاوى، التي يُوجِّهها (شوبي) إلى العربية، إلى أنها تفيض بأشكال التوكيد والمبالغة بصورة ينعدم فيها وجود علامة واضحة ومحددة لهما، وهو عامل من عوامل صعوبة قراءة النصوص العربية، فاطِّراد ظهور (إنَّ) و(قَدْ)، على سبيل المثال، بصورة واضحة وجلية في الكلام العربي، لهو دليل على استعمال غير متروٍّ، وهو ما يُقلِّل من قيمتهما الأسلوبية، فكلما كثر استعمالها قلّ توكيدهما، وربما وقع المرء ضحية لفهم خاطئ إنْ تُرجمتْ (إنَّ) بـ(بلا ريب) دائمًا؛ إذ يُمكن أن تُترجَم الجملتان: (خرج زيد)، و(إنَّ زيدًا قد خرج)، بـ(left Zaid)[٢].

ويمكن التأكيد بشكل جازم، إنْ كانت الأحكام السابقة قليلة الأهمية، فإن هذا الحكم بالذات لهو أقلُّها أهمية، فالاختلاف في مثل هذه الأمور لا يُعدُّ فرقًا بنيويًا بين لغة وأخرى. فصحيح أن التصريحات التي يصوغها متكلمو اللغة العربية في الوقت

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٦٣، ٦٤.
(٢) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٦٤.

الحاضر عن القضايا السياسية والاجتماعية قد تبدو للأسماع التي تعوَّدت الأسلوب الذي يتصف بعدم الجزم وبالتروي الحذر، كأنها تتسم بالمبالغة الغريبة، وهو أمر لا يمكن عدّه شأنًا لغويًا على وجه الدقة.

وليس هذا الأسلوب غريبًا عن اللغات الأخرى، فهل بَعد مبالغة الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون (١٩١٣ – ١٩٩٤م)، عندما قال عن رحلة أبولو ١١ التي استغرقت (١٦ يوليو ١٩٦٩ – ٢٤ يوليو ١٩٦٩م)، وهي الرحلة الأمريكية الأولى للهبوط على سطح القمر: (إن هذا الأسبوع أعظم أسبوع منذ بدء الخليقة) من مبالغة. فحِسُّ الأسلوب الذي يتَّسم بالمبالغة في أي لغة ليس له ارتباط ببنيتها اللغوية بقدر ارتباطه بالمثيرات والدوافع الأيديولوجية المتعددة والمتنوعة[١].

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص ص٦٤ - ٦٦.

المبحث الثاني: العجز عن التفكير الصادق والحقيقي:

يرى (مورو بيرجر) أن اللغة العربية ما دامت ملائمة بقدر كبير للخطابة، فلا يستطيع العرب تبعًا لذلك أن يُفكِّروا تفكيرًا صادقًا وحقيقيًا[1]. ومهما يكن الموقف الذي قد يُسوّغ إطلاق مثل هذا الادِّعاء، فإنه لا يُعقَل أن نقول: إن لغة ما ملائمة للخطابة بأكثر من معقولية القول: إن لغة ما ملائمة للسوناتات (المقطعات الشعرية المعروفة في الأدب الإنجليزي)؛ ذلك أن من الصعب تخيُّل وجود لغة تتسم بالفقر حتى يصل بها الأمر إلى عدم صلاحها لتكون أداة للتفكير والتأمل؛ إذ إن التطور المدهش للغات المولَّدة من بداياتها الهزيلة يوحي بأنه يمكن حتى عندما يكون الأصل متواضعًا أن تكون له القدرة على أن يغتني بسرعة.

زيادة على ذلك فإن الخطابة مُلبِسة بشكل ضار، ومن الواضح أنه لا يمكن أن توصف لغة بهذه الصفة بمعناها غير اللغوي؛ أي بمعنى (الجعجعة)، وأما بمعناها اللغوي فتعني الكلمات المجنَّحة، وهي من الأشياء الممتازة إذا ما اقترنت بالأفكار الرزينة المهمة. وهنا سيقول نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠): إن المقصود من الخطابة هو فنّ جمهوري يُعوِّد على سماع آراء ووجهات نظر غريبة جدًّا.

والأمر في كلا الحالين يتعلَّق بالنمط الأسلوبي، أو ما يُسمَّى بـ(فن صياغة العبارة)، ولا يتعلَّق باللغة من أساسها، فالأسلوب أو فن صياغة العبارة يُمثِّل فصلًا متطورًا جدًّا، وستكون مدونته الاصطلاحية مستعارة من الشعرية والقواعد، وكذلك من الموسيقى والهندسة. فصياغة العبارة تُعدُّ فنًّا أسلوبيًا؛ لكونها تقوم على عناصر، منها: التصحيح القاعدي، واختيار الكلمات، وتأثير الإيقاع، والتماثل الصوتي، والصور، والاستعارات. ويجب على الأسلوب أن يكون واضحًا، ويلاحظ الصواب، وملائمًا للذات وللأخلاق ولجنس الخطاب. كما يجب أن يكون لامعًا. فميدانه هو ميدان الزينة: لقد أخذت الدراسات تُميّز بين الاستعارات وصور الكلمات وصور

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٥٦.

الفكر. ولذلك يُمكن عدّ ثلاثة أجناس للخطاب موزعة تدريجيًا، وذلك تبعًا لنُبل المادة أو السبب، وهي: الخطاب الوضيع، والخطاب الوسط، والخطاب الرفيع(١).

وقد عَرَف النسق الأسلوبي عدة تحولات كبرى، وإن مسؤولية ذلك لتقع جوهريًا: أولًا: على المتغيرات الاجتماعية والتاريخية لممارسة عدد من أجناس الخطاب. وثانيًا: على عودة المضادات البلاغية (المسيحية، والفلسفية ...). وثالثًا: على إعادة التنظيم الدوري للحقل سواء كان داخليًا، في تنظيم علاقاته مع الفنون الثلاثة الأخرى: الجدل، والقواعد، والشعرية. أم كان خارجيًا من خلال اختزال البلاغة إلى صياغة العبارة بعد الصراع بين المحاجّة والتعبير(٢).

وفي اللغة الواحدة وعبر تاريخها، عادة ما يكون هنالك أنماط أسلوبية رائجة في عصر ما وغير رائجة في عصر آخر، فالأنماط الأسلوبية التي تُشكِّل خطابات لغة من اللغات تحكمها ذائقة المتكلمين المتغيرة من عصر إلى آخر. فعلى سبيل المثال، ظلَّ التقليد الرئيس للفكر الإغريقي وفيًّا للمقاربة الخطابية، فثمة طريقتان لفهم الطبيعة، تقوم إحداهما على اختبار الكلمات وحدها والأفكار التي تستدعيها، والأخرى على الاهتمام بالوقائع والأشياء التي تُخرِج هذه الأفكار إلى حيّز الوجود. وقد اتّبع الإغريق الطريقة الأولى؛ أي: الوجهة الخطابية أو الفكرية، فأخفقوا.

(١) يُنظَر: ديكرو: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ص١٥٨. ولذلك يجب ألا يتبادر إلى الأذهان أن مفهوم الأسلوب كان غائبًا عن التحليل البلاغي، فالتمييز بين الأسلوب البسيط والأسلوب الموزون (أو الرديء)، وبين الأسلوب العظيم (أو الراقي) ليُعدُّ جزءًا من الفئات التقليدية للبلاغة. فقد عَبَر مصطلح (الأسلوبية) خلال القرن التاسع عشر من اللغة الألمانية إلى اللغات الأوروبية الأخرى، وخاصة إلى الإنجليزية والفرنسية، فولادة هذا العلم في نهاية القرن التاسع عشر لتُعد علامة على الاستغناء عن البلاغة، حتى وإن كانت الأسلوبية ستأخذ منها بعض الوجوه، خاصة فيما يتعلّق بتحليل الصور والاستعارات. يُنظَر: ديكرو: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ص١٥٨.

(٢) يُنظَر: ديكرو: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ص١٥٩.

وإذا حَلَّلنا الأدوات التي يتواصل بها البشر جهارًا، فإن البلاغة تُشكِّل الشاهد الغربي الأول على فكر يتعلَّق بالخطابة. فهي على أراضي المعرفة والأخلاق واللسان، تدخل في صراع مع الإجابة التي تُثيرها، ومع الفلسفة التي تُشكِّك فيها، وذلك للأسباب التالية:

أولًا: إنها تُعبِّر عن الرأي وليس عن الكائن، وإنها لتجد ينبوعها في نظرية للمعرفة التي تتأسس على المحتمَل، والمقبول ظاهرًا، والممكن، وليس على الحقيقي وعلى اليقين المنطقي. إنها وَهْمٌ؛ فالحجة الأكثر ضعفًا يمكن أن تُصبح الأكثر قوة. وإن الخطابة لتجعل الصغير يبدو كبيرًا، إلى آخره.

ثانيًا: إنها الفن الذي يجعل السبب الذي ندافع عنه منتصرًا، فالبلاغي يُدافع بلا مبالاة عن الـ(مع) وعن الـ(ضد). وإن هذه الحيادية القيمية غير مقبولة.

ثالثًا: ليس الأمر تقنية، ولكنه ديماغوجية. فالبلاغة من خلال الانفعال تسعى إلى إنتاج الالتحام مع رأي معين. وإنها لتولِّد القناعة التي تتعلَّق بالاعتقاد، وليس القناعة الخاصة بالمعرفة. والخطيب لا يتعلم واقعًا ما هو حقّ، ولكن ما يبدو كذلك في نظر العدد الكبير الذي يجب عليه أن يحكم. وإنه ليستطيع أن يرفع بالمدح وأن يخفض بالنقد، إلى آخره.

هذا هو، منذ جورجياس (٤٨٣ – ٣٧٥ ق.م) وفيدر، إطار الإجراء الذي ستدّعيه الأفلاطونية والفلسفة الغربية بانتظام للبلاغة: تُشكِّل البلاغة التقانة الأدبية للإقناع، وذلك من أجل الأفضل والأسوأ[1]. إن التمييز، بعد أفلاطون، بين الرأي والمعرفة، ليسمح مع ذلك بوجود النسق الأرسطي:

فأولًا: تُمثِّل البلاغة المعادل في حقل الإقناع لما يُمثِّله الجدل في حقل الإثبات. ففي حين تكون المعارف الحقيقية هي نقطة انطلاق الإثبات، فإن الآراء غير المثبتة، ولكن التي يقبلها الجميع، تُمثِّل المقدمات المنطقية للمُحاجة. وموضوع المداولة ليس

(١) يُنظَر: ديكرو: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ص١٥٤.

موضوعًا من موضوعات العلم، وإنه لا يستطيع أن يفسح المجال إلا للآراء. فالبلاغة قوة وتقانة، وإنها لتتميز من الفلسفة والأخلاق كما تتميز من السفسطة. وكما الأخلاق والسياسة، فإنها تخضع للنظم العملية. وهي تهتم بالعناصر المادية للممارسة البرهانية. وإنها لتنشر أبعاد العقل الأول (اللوغوس) على فلك القيم، والمعتقدات والمظاهر والمحتمل.

وثانيًا: إن البرهان الأفلاطوني على عدم اهتمام البلاغة بحقيقة البراهين ليُعدُّ حقيقة مرفوضة. فأنْ يتعلَّم المرء أن يرافع عكس أطروحته، فإنَّ هذا يخدم ذلك الذي يريد أن يعرف ما الوقائع وكيف تُطرح الأسئلة.

وحينئذ يستطيع أرسطو أن يُعرَّف البلاغة بكونها فنًّا شكليًا، يقضي باستخلاص درجة من الإقناع تشتمل عليها كل ذات من الذوات، فيفتح الطريق بذلك لمشاريع تصنيفية(١).

والنزوع إلى البحث عن المبادئ الكامنة في الاستعمالات الشائعة للغة، ربما كان قد اكتُشف في مرحلة مبكرة جدًّا؛ إذ نجد عند أرسطو تحققًا لهذا التوجه الفكري. ومنذ القرن التاسع عشر بات مقبولًا على وجه العموم عدم إمكان دراسة المقولات والعلامات الفارقة المشابهة التي تؤدي دورًا كبيرًا في نظام أرسطو، بمعزل عن خصائص اللغة الإغريقية. فأرسطو كثيرًا ما يسمح لنفسه بالانقياد لأشكال اللغة، ولم يكن ذلك دائمًا عن عدم قدرة على التحرر من تلك الروابط، ولكن بالقدر نفسه، في الأقل، بسبب أن مطالب الجدل لم تكن لتسمح له بمغادرة مُعتَركه. وهكذا انتُزع التفريق بين المعرفة إجمالًا والعلوم المخصوصة، الذي كان مُستندُه الوحيد أن أغراض العلوم المخصوصة مُضمَّنة في أسمائها، وكثيرًا ما كان يحكم تصنيفه للمقولات اعتبارات الملاءمة اللغوية(٢).

(١) يُنظَر: ديكرو: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ص١٥٥.

(٢) يُنظَر: أوغدن وآنفر: **معنى المعنى**، ص١٠٢، ١٠٣.

وفيما يتعلَّق بعلاقة العربية بالأفكار الصادقة، فإن جميع اللغات لديها طرائق مألوفة تُستعمل بوساطتها الكلمات للتضليل والخداع، فاللغة آلة لإنشاء الأغراض أكثر منها وسيلة للرمز إلى الإحالات، وهو أمر مرهون دائمًا بقصد المتكلم وغاياته، فربما لا يكون الإنسان المحترم مُهيَّأً للمدى الذي يمكن أن تُساق إليه البراعة اللفظية واستعمال الرموز المتعمَّد في تضليل المستمع.

وثمة أعذار معروفة لهذه الممارسة في حالة المجنون الذي نرغب في أن نُخفي عنه مكان أداة حادَّة قد تُلحق ضررًا به وبغيره. غير أنه قد كانت كذلك ثمة محاولات لتسويغ أوسع للأمر. ففي الأوساط الغربية عادة ما يُسمَع في العهد المسيحي عن تزييفات لوثائق واختلاقات لأساطير، وتزويرات لكل وصف جعل من الكنيسة الكاثوليكية مقرًا حقيقيًا للكذب. وقد رُخِّص في جميع ذلك اللعب بالكلمات التي يأخذها المتكلم على معنى معين، ويُقصَد بها معنى آخر للمستمع. فهنالك رجال أُنزلوا منازل القديسين كانوا قد ميَّزوا أنواعًا من المراوغات التي يمكن استعمالها في حال وجود سبب وجيه، كأي غرض صادق لمحافظتنا على مصالحنا الدينية أو الدنيوية.

وفي العصر الحديث زاد اشتداد النزعة الوطنية القتالية سببًا وجيهًا آخر؛ ذلك بأن القانون العسكري يتضمن كل الإجراءات مع المعادي من الدول أو الأفراد، بوصفها جزءًا من عملية المحافظة على المصالح الدينية والدنيوية. وفي زمن الحرب تغدو الكلمات جزءًا طبيعيًّا من آلة الخداع، وقد لخَّص أحد اللوردات أخلاقيات الحالة على نحو ملائم عندما قال: سنظلّ نُردِّد إيماننا بأن الصدق خير سياسة، وبأن الغلبة تكون دومًا للصدق على المدى البعيد. فلهذه الجمل الجميلة فعلها الحسن في دفتر الطفل، ولكن الرجل الذي يتصرَّف بموجبها في الحرب فيحسن به أن يُغمِد سيفه إلى الأبد.

وقد كان الإغريق غير بعيدين، بطرائق شتى، عن موقف الرجل البدائي من الكلمات. وليس بمستغرب أن نجد أن الآليات اللفظية للسِّلم بعد الحرب البيلوبونيزية أصبحت عاطلة تمامًا، ولم تُمكِن إعادتها للاستعمال؛ إذ إن معاني الكلمات لم تعد لها العلاقة نفسها بالأشياء، وإنما بدّلها الناس على النحو الذي رأوه ملائمًا. فلم يكن للإغريق قِبَلٌ بمواجهة مثل هذه الحالة.

ويبدو أن العالم المتحضر اليوم قد أوجد أعرافًا تجعله، بَعْدُ، أكثر عجزًا. فالشيء الجديد الوحيد بشأن الخداع في الحرب هو ما لدى الإنسان المعاصر من وسيلة أكمل لممارسته؛ إنه الإعلام والصحافة، يُطلِق بهما على رأس العدو ما لا يُلمَس أو يُحسّ به. ولكن هل كان هذا استعمالًا مؤقتًا لآلة التضليل المعاصرة، وبعودة السِّلم فُقِدت هذه العادة؟ إن الأمر ليس كذلك؛ إذ إن أي سلاح تستعمله في حرب ما يُخلِّف فاتورة لتُسدَّد في السِّلم، وسلاح الدعاية له تكلفته كأي سلاح آخر.

وبمقاييس أقلّ ضخامة يمكن أن تدرس آلة التضليل المتعمد دراسة تنظر في مقاييس التصحيح. ومن خلال إيضاح مرامي ذلك فرصة لوصف عملية (التزييف)؛ أي فن تزييف النزول من المقدمات المنطقية إلى الاستنتاج، فمن أجل تزييف جيد لا بد من توافر شروط مختلفة: أولها: تمييز جيد للكلمات يُمكِّنك من تشكيل سهل وطبيعي لعدد كبير من القضايا المتدرجة جيدًا، التي تتحوّل تدريجيًا، إن جاز التعبير، من الجزم بأن (س) هي أبيض إلى الجزم بأن (س) هي أسود. وثانيهما: ازدراء داخلي ومطلق للمنطق وللكلمات، فهل الكلمات سوى لُعَب وحلوى للصغار البالغين الذين يُسمُّون أنفسهم رجالًا؟ ولكن حتى حيث تكون المراجع الحقيقية غير مشكوك فيها، قد يصعب إدراك المدى الذي تنتشر فيه عادةُ استعمال سلطة الكلمات بوصفها أسلوب تضليل.

وفي عالم كعالم اليوم يُحتمل أن يُضلَّل المؤوِّل الساذج تضليلًا خطيرًا في مناسبات كثيرة إن أُغفِل وجود هذه الميزة غير السارة التي تسود اللغات والطبقات والجماهير على حدٍّ سواء من غير تمييز لعِرْق أو عقيدة أو جنس أو لون. فإذا ما واصل الباحث، في أي لغة، فحص ظروف التواصل، فسيرى سبب كون أي عُدَّة رمزية عامة الاستعمال عُرضة للنقص والخلل. لكن إن تكن عُدَّتنا غرَّارة، فهي مع ذلك، لا غنى عنها، وكذلك لن تتحسَّن الأمور بالضرورة بوجود عُدَّة أخرى كاملة، ولو كان كمالها مُضاعفًا عشر مرّات. وليست الكلمات الجديدة هي ما يُحتاج إليه دائمًا، وإنما يُحتاج إلى وسيلة لضبطها بوصفها رمزًا، وسيلة للكشف

الفوري عمّا تُحيل إليه عادة في العالم في أي مناسبة[١].

وأما علاقة اللغة العربية بالأفكار الحقيقية، فهي من حيث المبدأ مسألة طريفة، وهي مثال مُحيِّر للمسألة الشائكة المتصلة بالعلاقة بين الفكر واللغة بصفة عامة، فمن الصعب أن يُقال شيء محدد عنها، وذلك لطبيعة الفكر غير المحددة. فإذا كان المنتمون إلى جماعة لغوية واحدة، ولنقل (سكنر) صاحب المدرسة السلوكية و(تشومسكي) صاحب المدرسة التحويلية، فإنه يبدو أن الواحد منهم كأنه يُنكِر امتلاك الآخر فكرًا حقيقيًا. وهكذا فإنه من الواضح أن تحديد الفكر المتعدد المستويات عند مجموعة لغوية تنتمي إلى دول عديدة يُعدُّ أفرادها بالملايين، سيكون ضحية لصعوبات منهجية كثيرة[٢].

ويُضاف إلى ذلك أن اللغة نفسها لا تُشير دائمًا إلى الفكر، فبالرغم من أن العنصر اللغوي النمطي يُسمِّي التصوُّر، غير أن هذا لا يعني أن استعمال اللغة هو دائمًا أو أساسًا استعمال تصوُّري، فمن المرجَّح حقًا أن اللغة أداة موضوعة أصلًا لاستعمالات أدنى من المستوى التصوري، وأن الفكر ينشأ كتأويل مُصفًّى لمحتواها. فنحن لا نهتم في حياتنا اليومية بالتصورات كما نهتم اهتمامًا بالغًا بالجزئيات العينية والعلائق الخاصة، وعندما أقول مثلًا: (لقد تناولت فطورًا جيّدًا هذا الصباح)، فواضح أنني لست في نزاع مع الفكر المضني، وأن ما ينبغي عليّ قوله ليس سوى ذكرى ممتعة رُدَّت رمزيًا إلى مجاري التعبير المعتاد. فكل عنصر من عناصر الجملة يُحدِّد تصوُّرًا منفصلًا، أو علاقة تصورية، أو كليهما معًا. وأمّا الجملة ككل، فليست لها دلالة تصورية من أي نوع[٣].

---

(١) يُنظَر: أوغدن وآنفر: **معنى المعنى**، ص ص٧٤ – ٨٠.

(٢) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٥٥، ٥٦.

(٣) يُنظَر: سابير، إدوارد: **مدخل للتعريف باللغة**، اختيار وترجمة: سعيد الغانمي، ضمن كتاب: اللغة والخطاب الأدبي (مقالات لغوية في الأدب)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٣م، ص١٨.

بل إن هنالك فئة من العلماء ترى أن اللغة الإنسانية العادية ليست ضرورية للتفكير، إلا إذا افترضنا أن الناس كُلهم يُفكِّرون كابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧م) أو ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠م). فبما أن التفكير تجسيد داخلي للتجارب، فإن هذا التجسيد يمكن أن يتخذ شكل صور عمل أو لغة. ونحن نستخدم كامل أشكال تجاربنا الموجودة، لكن بعض الناس يرون استخدام بعض الأشكال أكثر من غيرها، ويمكننا أن نفكر من خلال تصورات داخلية غير واضحة الرؤية عندما نفكر في حل مشكلة ما، مثل: كم حقيبة نعتقد أنه يمكن وضعها في صندوق السيارة. وغالبًا ما يُفكر مهندسو العمارة والفنانون من خلال صور مرئية. ويمكن تمثيل الفكر أيضًا بوساطة عمل داخلي أو صور عضلية. وفي حل مشكلة التسديد والقوة اللازمين لوضع (كُرة التنس) في مكان لا يصل إليه الخصم، نفكر في شروط الحركة والفعل. ويفكر الرياضيون وبعض الفيزيائيين بالطريقة نفسها.

ولذلك تبدو التمثيلات العقلية في بعض اللغات، بغض النظر عن كونها لغات طبيعية أو رياضية، على قدر كبير من الأهمية في النشاط العقلي عند مستخدمي هذه اللغات. وعلى الرغم من أنه من الممكن أن نفكر من دون معرفة أي لغة رسمية، كما هو واضح في حالة الأطفال الصُّمّ وبعض الأطفال الذين يعانون من عجز نطقي، يبدو أيضًا أن الذين يعرفون لغة ما يستخدمونها في الاستعانة على التفكير(١).

لقد عانى كل منّا من تجربة الحصول على فكرة وجد من الصعب التعبير عنها شفويًا؛ لذا تبدو الكلمات، أحيانًا، غير مناسبة حقيقة. ولا تبدو أفكارنا التي عبّرنا عنها سوى ملامح بسيطة لتفكيرنا. ويُظهِر الناس الذين يُعانون من (الحُبْسة)، وهي عدم القدرة على الكلام بسبب آفة في الدماغ، استقلال الفكر واللغة. إذ كثيرًا ما يبدو من يُعاني من الحُبْسة كأنه يمتلك فكرة يحاول التعبير عنها، ولكن تنقصه اللغة

(١) يُنظَر: ج. بوردن، جلوريا وس. هاريس، كاثرين: **أساسيات علم الكلام**، ترجمة: محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، حلب، ١٩٩٠م، ص١٧، ١٨.

التي يُجسِّد بها هذه الفكرة.

وبالفعل فإن الأشخاص الذين تعطلت قدراتهم الإدراكية على أثر خلل دماغي، ليُمثِّلون عمومًا اضطرابات منفصلة؛ إن بعض قدراتهم فقط تكون معطلة، بينما يكون بعضها الآخر سليمًا. وهناك انفصال مذهل بين اللسان وميادين إدراكية أخرى قد أصبحت بديهية منذ زمن طويل. فبعض الرضوض الدماغية تستطيع أن تُحدث فقدانًا للسان من غير مساس بالملكات الأخرى؛ فنجد بعض المرضى الذين انعطبت لغتهم، ولكن قدراتهم على معرفة الأشياء بصريًا لا تزال سليمة، كما نجد، على العكس من ذلك، مرضى احتفظوا بلسان سليم بينما معرفتهم بالأشياء قد تعطلت.

وكذلك، فإن القدرات الحسابية والاستدلالية، أو حتى القدرات الموسيقية، تستطيع أن تبقى سليمة عند مرضى أُصيبوا بالحُبْسة. وعلى العكس من هذا، فإن بعض المختلّين عقليًا ليستطيعون أن يُظهروا عجزًا إدراكيًا شديدًا، بينما قدراتهم اللسانية، فتكون، نسبيًا، في معزل عن هذا. ومن هنا، فإن ملاحظة هذا الانفصال المزدوج ليدعو إلى النظر إلى اللسان بوصفه نسقًا لمعالجة مستقلة نسبيًا ومتميزة عصبيًا من الوظائف الإدراكية الأخرى ذات المستوى العالي(١).

وكذلك يتأخر بعض الأطفال الذين لم يتعرّضوا كثيرًا للغة الإشارات في تعلم لغة مجتمعهم بسبب الصعوبات التي يُلاقونها في تعلم الكلام الشفوي، ولكن العلماء بيّنوا أن القدرات العقلية لهؤلاء الأطفال تنمو على نحو طبيعي تقريبًا. وتكتب هيلين كيلر (١٨٨٠ – ١٩٦٨م)، الكاتبة الأمريكية المشهورة العمياء والصماء منذ الشهر الثامن عشر من عمرها، قائلة: إنها لم تفهم المبدأ الأساس الأول في تعلم اللغة؛ أي فكرة تمثيل الرموز اللغوية لعناصر تجاربنا، إلى أن بلغت سنّ التاسعة، عندما كان أحد أساتذتها يُعلِّم كلمة (الماء) من خلال جعل الطفلة تلمس وجهها بإحدى يديها أثناء نطق الكلمة، وتلمس الماء باليد الأخرى، وعلى نحو مفاجئ يكتشف الطفل العلاقة

(١) يُنظَر: ديكرو: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ص٣١٧.

الرابطة، وبعد ذلك تعلّمت هيلين مُسمّيات كل الأشياء بسرعة. لقد بدأ تعلم اللغة، لكن هيلين لم تكن طفلة غير مفكرة قبل هذه التجربة، كان تفكيرها يُمثَّل من خلال الصور الذهنية لزامًا(١).

فلذلك يكون القول، على سبيل المثال: إن اللغة الإنجليزية أكثر ملاءمة لعملية التفكير من اللغة العربية، لا معنى له على الإطلاق، فالمعرفة الإنسانية والتفكير المنطقي محلُّهما لغة التفكير، وهي شكل من أشكال اللغة العقلية، لها قواعدها النحوية والدلالية الخاصة التي تسبق وجود اللغة والتي لا يمكن اكتساب اللغة بدونها(٢)، فهي لغة لا تُشبه أي لغة خارجية كالعربية أو الإنجليزية؛ لأنها تُمثِّل مستوى مُتقدِّمًا من مستويات نشاط الدماغ، فالدماغ مُجهَّز بالتوصيلات المناسبة وبالقدرات الافتراضية على تمثيل التصوُّرات، وبالمجال الكافي لجمع هذه التصوُّرات وفق علاقات الفاعل والمفعول والهدف وما إلى ذلك.

وهذه كلها أشياء أساسية سابقة لتكوين الجمل في اللغة الخارجية، ودليل ذلك أمران، يتمثل أحدهما بالفكرة القائلة بوجود (الكلام الداخلي) لدى الأطفال، فعلى الرغم من أن اللغة المبكرة تخاطبية الوظيفة أساسًا، إلا أن العلماء احتفظوا بالقول: إن بعض الاستخدامات المبكرة للغة هي استخدامات فردية؛ أي يُخاطب الطفل فيها

(١) يُنظَر: ج. بوردن وس. هاريس: **أساسيات علم الكلام**، ص١٨، ١٩.

(٢) يذكر آينشتاين في وصف فهمه لكيفية تفكيره، بأن كلمات اللغة، سواء أكانت مكتوبة أم شفوية، يبدو أنها لا تقوم بأي فعل في آلية تفكيره. وتمثل الوحدات الفيزيائية التي يبدو أنها تعمل بوصفها عناصر في التفكير رموزًا معينة وصورًا واضحة نسبيًا، يمكن إعادة إنتاجها وتركيبها بطيب خاطر. أمّا إنْ أُخذ هذا النشاط التركيبي من وجهة نظر نفسية، فإنه يبدو السمة الأساسية في التفكير الفعّال المنتج قبل أن يكون هناك أي صلة بالبناء المنطقي للكلمات أو الرموز الأخرى التي يمكن مخاطبة الآخرين من خلالها. وتكون العناصر الآنفة الذكر في حالة آينشتاين عناصر مرئية وبعضها من أنموذج عضلي. يُنظَر: ج. بوردن وس. هاريس: **أساسيات علم الكلام**، ص١٧، ١٨.

نفسه. ويقل الجهر بالكلام الداخلي بين سنّ الثالثة والسابعة تدريجيًا. ويصبح كلامًا داخليًا غير مجهور ليغدو إحدى طرائق النجوى. والكلام الداخلي في هذه المرحلة ليس بكلام ولا لغة، إنه شيء يقع بينهما. فعندما نفكر مستخدمين اللغة، فإننا نفكر ضمن جزئيات لغوية وعبارات مختصرة، حيث تبهت الكلمات بسرعة، أو لا تظهر إلا جزئيًا(١).

وثانيهما أن الصُّم البكم لا يفقدون سوى التكلُّم بلغة خارجية، وأمّا لغة التفكير لديهم وكذلك قدراتهم العامة على الإدراك السليم فهي باقية وموجودة، فليس هنالك ما يدعو إلى الافتراض بأن فقدان القدرة على استعمال العمليات الهامشية المتعلقة بالمؤثرات والمخرجات سيؤثر بأي حال من الأحوال في الآليات الدائمة التحتية التي تعتمد عليها اللغة، فالآليات التحتية لا تختفي، بل تظل سليمة تمامًا حتى خلال انقطاع وظائفها الخارجية المؤقتة. فالناس يُفكِّرون بنبضات كهروكيميائية، وهي التي يمكن أن تتحوَّل في مرحلة متأخِّرة جدًّا أو حتى قبل نهائية، من عملية التفكير، إلى كلمات أو صور.

ويلخص عالم النفس السويسري جان بياجيه (١٨٩٦ – ١٩٨٠م)، من خلال مراقبته للأطفال العاديين، أن الإدراك يتطور وينمو مستقلًا، وتتداخل اللغة مع العقل، وتعكس حتمًا تفكير الطفل، لكن اللغة لا تُقرِّر التفكير أو الإدراك. فبنائية بياجيه ترى في تطور اللسان حالة خاصة من حالات تطور الإدراك عمومًا، وإنه ليجعل منه إنتاجًا للتفاعل بين تطور الذكاء الحسي المحرك والمحيط. فوفقًا لرأيه، ليس من المفيد تدريب الطفل على لغة ما، إنْ أُريد تطوير إدراكه. إلا أنه يرى أن مراحل التطور الإدراكي عند الطفل تنعكس في استخدامه للغة. وقد لاحظ العلماء أيضًا برهانًا على وجود إدراك وفهم غير لغويين عند الأطفال. ويُبدي الرُّضع فهمًا للعلائق وقدرات على حلّ المشاكل على نحو منفصل عن استخدامهم للغة، تمامًا مثلما

(١) يُنظَر: ج. بوردن وس. هاريس: **أساسيات علم الكلام**، ص١٩.

يستخدمون أصوات البأبأة التي تبدو خلوًا من أي محتوى ذهني. وبعد ذلك يتحد الفكر واللغة في تطور الطفل[١].

فاستعمال لغة بدل أخرى لا يُؤخَذ دليلًا على قوّة التفكير ما دام تلبُّس الأفكار بالكلمات يأتي كلمسة أخيرة بعد اكتمال عملية التفكير[٢]، فادِّعاء التمييز بين التفكير باللغة العربية والتفكير باللغة الإنجليزية أو التفكير بأي لغة أخرى ينطوي على ميزة الوصول إلى جميع مستويات نشاط الدماغ، وهذا افتراض غير صحيح، فنحن لسنا بحاجة إلى معرفة الكيفية التي تتم بها عملية تفكيرنا أكثر من حاجتنا إلى معرفة

(١) يُنظَر: ج. بوردن وس. هاريس: **أساسيات علم الكلام**، ص١٩.

(٢) يمتلك إدوارد سابير (١٨٨٤ – ١٩٣٩م) لهذه المسألة وجهة نظر مختلفة تمامًا، فهو يرى أن اللغة وظيفة قبل – عقلية، وفي ذلك يقول: إن اللغة يمكن اعتبارها أداة قادرة على تشغيل سلسلة من الاستعمالات النفسية. وتدفُّقها لا يتماثل مع تدفُّق المحتوى الداخلي للوعي فقط، بل يُماثله على عدّة مستويات، ابتداء من حالة الذهن التي تُهيمن عليها صور معينة، إلى الحالة التي ينصرف فيها الانتباه إلى المفاهيم المجردة وعلائقها فقط، وهي الحالة التي تُسمَّى تقليديًا بالتفكير الاستدلالي. وهكذا فإن الشكل الخارجي للغة هو فقط الثابت، أما معناها الداخلي وقيمتها النفسية أو توترها، فيختلفان باختلاف التركيز، أو اهتمام الذهن، ولا داعي للقول إنهما يختلفان مع التطور العام للذهن. ومن وجهة نظر اللغة، فقد يُعرَّف الفكر بأنه المحتوى الأعلى الكامن أو الممكن للكلام، أو المحتوى الناتج عن تأويل كل العناصر في تيار اللغة على أنه مسكون بقيمتها التصورية الكاملة. ويستتبع ذلك أن اللغة والفكر لا يشتركان في حدودهما. وفي أفضل الأحوال، لا يمكن للغة سوى أن تكون الوجه الخارجي للفكر في أرقى مستويات التعبير الرمزي وأكثرها تعميمًا، ولكي يُعبِّر سابير عن وجهة نظره تعبيرًا مختلفًا بعض الشيء، يقول: إن اللغة هي في الأساس وظيفة قبل – عقلية. فهي تسبغ على الفكر الكامن فيها؛ الفكر الذي كثيرًا ما يُقرأ منها، تصنيفاتها وأشكالها بتواضع؛ أي أنها ليست، كما يدَّعي بعضهم، بسذاجة، التسمية الأخيرة للفكر. ويرى سابير أنه يقف وراء هذا الوهم عدد من العوامل، أبسطها هو الإخفاق في التمييز بين التفكير والتخييل. يُنظَر: سابير: **مدخل للتعريف باللغة**، ص١٩، ٢٠.

الكيفية التي نتمثَّل بها غذاءنا ونُدوِّر الدم في عروقنا ونُؤلِّف جملًا صحيحة لغويًّا أو نفعل كثيرًا من الأشياء الأخرى التي تقوم بها أدمغتنا دون أي مساعدة من انتباهنا الواعي. فهناك مستويات عدة من نشاط الدماغ تشترك في عملية التفكير، إنه أشبه بجبل جليدي عائم، ويا لسعادتنا لو استطعنا أن نرى جزءًا يسيرًا من تلك الكتلة الهائلة الكامنة![1].

وهكذا فإن حجج أولئك الذين يرون أن لغة ما أكثر ملاءمة للتفكير من لغة أخرى تسقط أمام هذا الدليل العلمي الواضح، فيجب ألا نخلط بين اللغة الداخلية

(١) قد يعترض أحدهم قائلًا: إنه من الظلم وصف حاضر معرفتنا بهذا الشكل المظلم، خاصة في ضوء التطور التكنولوجي المذهل الذي اعتمدت عليه آخر التجارب العلمية، فقد انطوت على مسح لنشاط الدماغ، وبيّنت المناطق التي تنشط عند تأدية الدماغ لمهام معينة. فكيف لنا أن نصف ذلك بالنقص؟ ولتوضيح ذلك ينبغي النظر إلى هذا الأمر من هذا المنطلق: تخيّل حاجتك إلى معرفة طريقة عمل مؤسسة كبيرة، ولم يُتح لك أكثر من الوقوف خارج مبناها والنظر إلى النوافذ من بُعد. فلن يسعك وقتها إلا الاعتماد على الدليل الوحيد الذي ينطوي على معرفة الغرف التي أُنيرت فيها المصابيح في أوقات مختلفة من اليوم. إن ظننت أن تلك المقارنة متشائمة، فلتتذكر أن أكثر أجهزة التصوير بالرنين المغناطيسي تطورًا لا تقوم بما هو أكثر من إيضاح موقع المصابيح المضيئة في الدماغ. فهي تُبيّن فقط أماكن ازدياد تدفق الدم في أي لحظة معينة، فنستنتج من ذلك ازدياد النشاط العصبي في تلك المواقع. لكننا لا نقترب بتاتًا من معرفة ما يُقال في الدماغ: لا نعلم بتاتًا طريقة برمجة أي مفهوم محدد، أو مصطلح أو قاعدة نحوية أو انطباع ألوان أو استراتيجية اتجاهات. فنحن لا نزال قصيري النظر بعمل الدماغ، فصحيح أن لدينا علمًا بما يدخل الدماغ من جانب (الفوتونات في العين) مثلًا، ونعلم ما يخرج من الجانب الآخر، بيد أن عملية اتخاذ القرار التي تجري بين هذا وذاك لا تزال تحدث من خلف أبواب مغلقة. في المستقبل، عندما تُصبح الشبكات العصبية بنفس وضوح بنية الـ(DNA)، وعندما يستطيع العلماء معرفة كل ما يُقال عند استماعهم إلى الخليات العصبية، فستصبح أجهزة التصوير بالرنين المغناطيسي بنفس درجة تعقيد تجارب قطع ذيل أجيال من الفئران، في بداية القرن العشرين، لمعرفة ما إذا كانت الإصابة ستتكرر في سلالتهم. يُنظَر: دويتشر: **عبر منظار اللغة**، ص٢٥٩، ٢٦٠.

التي هي، لطبيعتها البيولوجية، واحدة لدى جميع البشر وبين الستة آلاف لغة التي توجد بشكل منفصل وفي معزل عن أي مثال منها(١).

ونتيجة لذلك، فإنه ليس هناك أي لغة غير مؤهّلة للتعبير عن الفكر الحقيقي أو عن أعمق الأفكار، مهما اتّصفت قبائل مُتحدِّثيها بالبدائية. ولا يوجد أي دليل على أن أي لغة قد تمنع متحدثيها من التفكير في أي شيء، فنحن لا نستطيع البحث عن التأثيرات التي تُسبِّبها اللغة الأُمّ بما تسمح به اللغات العديدة من أفكار لمتحدثيها. وأي قصور في قدرة اللغة على التعبير عن فكر ما، فإنما يعود إلى خلوّها من مصطلحات معينة أو بعض قواعد لغوية، وتلك يمكن استعارتها، تمامًا كما فعلت جميع اللغات الأوروبية التي استعانت باللاتينية للتعبيرات الفلسفية، التي بدورها استعانت بالإغريقية بشكل أساس. وإذا رغب الناطقون في أي من اللغات القَبَلية بذلك، فيمكنهم أيضًا الاستعانة بلغات أخرى. ولا شك في أنه من الممكن التحاور بلغة (الزولو) حول فوائد الفلسفة التجريبية أو العقلانية، أو التحدُّث عن الفينومينولوجيا الوجودية بلغة غرينلاند الغربية(٢).

(١) بيكرتون، ديريك: **اللغة وسلوك الإنسان**، ترجمة: محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠١م، ص ص١١٨ – ١٢٣.

(٢) يُنظَر: دويتشر: **عبر منظار اللغة**، ص١٨، ١٩. منذ القرن السادس عشر وما بعده، بدأت الفكرة القائلة بأنه من الممكن ابتكار لغة فلسفية عالمية، ترتكز على تصنيف فلسفي لتجربة الإنسان ومنتظمة تمامًا في الصرف والاشتقاق، تتبلور بين علماء الغرب. وربما لم تكن مصادفة أن هذه الفكرة نمت بقوة مع انحسار اللاتينية التدريجي كلغة مشتركة للعلماء والمثقفين في أوروبا. ويعود فضل السبق لمقترحات جادة لمثل تلك اللغة الأولية، في أغلب الأحيان، لديكارت. إلا أن ديكارت لم يعترف إلا على مضض بالفائدة الممكنة من قاموس متعدد اللغات ومفتاح بين اللغات، ولم يقدم سوى مقترحات محددة قليلة حول تركيب لغة ترتكز على الفئات الفلسفية، زيادة على اقتراحه في أنه يجب على الفلسفة أن تكون صحيحة، ويجب أن يكون الصرف منتظمًا أيضًا. وقد دغدغت الفكرة أيضًا ليبنز في الربع =

فبعض النظريات على غرار فرضية سابير – وورف، تفترض أن اللغة تُكيِّف الفكر لدرجة أن متكلمي اللغات المنظمة تنظيمًا مختلفًا يعجزون عن تصور العالم بالطريقة نفسها. ومثل هذا الافتراض يفتقر إلى البراهين المبينة للتأكيد على صحة هذا الأمر. ويبدو بالأحرى أن اللغة تكون مستقلة بما فيه الكفاية عن الفكر، وأنه، على أي حال، ليس من شأن التكلم بلغة ما أن يجعل متكلمي هذه اللغة يفكرون بطريقة خاصة، فنحن جميعًا نملك الدماغ نفسه، بمعزل عن التجارب الشخصية، كما أن اللغات تسلك الدروب نفسها على غرار التبدلات النحوية المقولبة وتغير معاني الكلمات(١).

=

الأخير من القرن السادس عشر، ولكن أفكاره كانت ذات طبيعة نظرية فقط. يُنظَر: ليكوك وموليسلر: **هندسة اللغة (لغات خاصة)**، ص٨٥٦.

(١) يُنظَر: بيك، باسكال وآخرون: **أجمل قصة عن اللغة**، ص١٣١.

المبحث الثالث: اللعب الكلامي:

يتّهم (شوبي) العرب بالغرام باللعب الكلامي على حساب الفكر بما يصل إلى حدّ يُشبه أمراض الكلام التي تسم الشخصيات المنفصمة(١).

فقد انبثقت أمراض في قلب القدرة اللسانية، كان الممثلون لها موضوعًا لخسارات انتقائية، فقد وُصِف مثلًا مريض لا يقدر أن يعطي كلمات (واقعية)، بينما هو ينجح في تحديد كلمات (مجردة) كانت قد اقتُرحت عليه، وكان هنالك مرضى يُمثّلون الحالة المعاكسة. وقد رويت أيضًا حالات لمصابين بالحُبْسة كانوا يعانون من مصاعب انتقائية مع فئات دلالية خاصة جدًا، وذلك مثل: الفواكه والخضار، أو الأشياء المنزلية أو أجزاء الجسم. وهناك دراسات عن (النحو) تُشير إلى أن وجوهًا خاصة من المعالجات النحوية يمكن أن تكون مضطربة، ومثال ذلك القدرة على إنتاج كلمات قاعدية. ويبدو أن هنالك انفصالًا بين اضطرابات صرفية إمالية واضطرابات صرفية اشتقاقية(٢).

وعلى هذا النحو، ولكن بشكل مجحف، فإنه يُنظر إلى بنية اللغة العربية على أنها تُلائم بصورة خاصة التنكيت والعبارات المسجوعة التي تُستعمل فيه، ويُذكَر مثالًا على الاهتمام المبالغ فيه بالشكل اللغوي، القصة التي تُضرب مَثلًا على أدب التوقيعات، حيث يُروى في كُتب الأدب أن أحد الخلفاء وردته رسالة من قاضي (قُمّ) في إيران، فجلس يتفكّر ماذا يوقّع على رسالته، فكتب: (أيُّها القاضي بِقُمّ قد عزلناك فقُم). وكان هذا القاضي يقول إذا سئل عن سبب عزله: أنا معزول السجع من غير جرم ولا سبب. فما مضت أيام حتى أعاده(٣).

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٦٢.

(٢) يُنظَر: ديكرو: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ص٣١٧، ٣١٨.

(٣) يُنظَر: الحموي، ياقوت بن عبد الله (٦٢٦): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ج٤، ص٣٩٨.

وقد عُرِف الصاحب بن عبّاد (٣٢٦هـ – ٣٨٥هـ) بإكثاره من مثل هذه التوقيعات، حيث وردت عنه الأعاجيب، ومن ذلك أن عاملًا كتب رقعة إليه في التماس شغل، وفي الرقعة: إن رأى مولانا يأمر بإشغالي ببعض أشغاله فَعَل. فوقَّع الصاحب تحتها: "من كتب (إشغالي)، فلا يصلح لأشغالي". وكان يقصد أن الصواب هو (شُغلي)؛ لأنّ (أشغل) هي لغة رديئة في شغل[١].

ومثل هذه القصص التي يظهر فيها التلعُّب بالكلمات، موجودة في أكثر اللغات والآداب، إنْ لم يكن فيها كلها، ويمكن مقارنة ذلك في الإنجليزية بالقصائد الهزلية التي تُسمَّى (limericks). وهل نظن أن مثل هذه القصص الواردة في الأدب العربي حقيقية، بشكل يُماثل الحال التي أمر فيها أحد القضاة الفرنسيين بحرمان عائلة كان لقبها (Trognon) من هذا اللقب؛ لأنه لقب سخيف؟ وهل الغرض من استعمال هذه الوسائل هو التلعُّب بالكلمات في أثناء الحديث من غير هدف، بحيث لا يؤدي إلى تغيير المعنى، أم أنه يُخفي وراءه رسالة ما؟

إن اجتماع الكلمات تبعًا لأصواتها يؤدّي دورًا فيما يُسمَّى بـ(الاشتقاق الشعبي)، فبعض العلاقات الآنية بين كلمة وأخرى تظهر غير مبرّرة من وجهة نظر تعاقبية، فتكون بذلك علاقتهما علاقة اشتقاق شعبي اخترعها المتكلمون؛ لأنها تندمج جيّدًا في نسق اللغة. وسيكون غير مفيد، بل مُضلِّلًا، في لحظة معينة إنشاء تنظيم داخلي للغة لا تسمح الدراسة التعاقبية بتفسيره. وعكس ذلك ما يمكن أن يُسمَّى بـ(بالاشتقاق المِنْسي)، فإن هنالك عددًا من العلاقات التاريخية المؤسسة ليس لها واقع آني، وإن هذا ليكون؛ لأنها لم تستطع أن تندمج في نسق اللغة الحالية، والسبب في ذلك نسيان المتكلمين لها.

ومعظم اللغات تتعرَّض لهذين النوعين من الاشتقاق، فالذهن، في الاشتقاق الشعبي، يميل إلى أن يصل بين الكلمات تبعًا لشكلها الخارجي، وأحيانًا على عكس

(١) يُنظَر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت: ٧٦٤هـ): **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٩، ص٨٠.

ما يقتضي المعنى، بل على عكس ما يقتضي العقل السليم، وهو بخلاف ما يقوم عليه البحث الاشتقاقي الدقيق الذي يُقيم علاقة لكلمة مع كلمة أخرى، مختبئة فيها، وتعطيان المعنى العميق نفسه.

وقد تسوق مشابهة غامضة بين كلمة وكلمة أخرى لم تأت منها، تكون أشيع استعمالًا أو أكثر شهرة إلى التقريب بينهما، ومن هنا تنشأ بعض التشويهات الغريبة. وهو ما لا يُقرّه (الاشتقاقي التاريخي) الذي يُقيم علاقة لكلمة مع أخرى سابقة عليها جاءت منها. وفي الصيغ الظريفة التي تأخذها أسماء الأمراض والأدواء الفنية في أفواه العامة كنز لا يفنى من التسلية للمشتغلين بتسجيل الطرائف. فهنالك دائمًا في اللغات أمثلة بيّنة من ترابط الكلمات الذي يحصل في الذهن، فحدوثه بصورة غير شعورية عادة لا يمنع من أنه بالغ الأثر.

وإذا استُقصيت نتائج التلاعب بالكلمات خرجنا من الميدان اللغوي إلى ميدان الفلكلور، فكم من الأساطير ولدت من أحداث لغوية مرتبطة بالتلاعب بالألفاظ؟! فبالقرب من جرينوبل قلعة تُسمَّى سان فران Saint-Vrain، حُرِّف اسمها إلى سن فنان Sans-Venin لتعني: (دون سُمّ)، فنُسجت حولها أسطورة منشؤها هذا الاشتقاق الشعبي. فالاسم – وهو مطية الأفكار – يؤدي بتلاعب التشابه والجرس إلى مقاربات تُغرِّر بالعقل. فهنالك أشياء يرفضها العقل السليم، ينظر فيها الإنسان، فيظنها من خيال الأطفال، ولكنها تأخذ سيما الحقيقة.

فلَمْ تعد المسألة أن نضع لغة صحيحة للتفكير بطريقة صحيحة. فبما أن اللغة لعوب، فيجب العبث بهذا الاختلال، واستخدام اللعب وأنصاف الكلام وما هو تقريبي لإنتاج حقيقة ما. تلك هي سياسة اللغة المعقدة حين تواجه الرغبة في إشارة ذات معنى واضح بإشارة مبهمة ولكن مقصودة. وهذه هي عين الفكرة المعبر عنها حين يُقال: إن معنى الكلمة يتركز فقط في لعب اللسان الذي يسمح به. وينتج عن هذا أن معنى الوحدة اللسانية يكمن في الألعاب التي تسمح بها. ولذلك يمكن القول: إن أحد أسباب نشوء الأساطير هو التلاعب بالألفاظ.

وفي قصص الأولياء أيضًا نصيبها من مسؤولية ذلك، في غالب الأحيان، فكثير من القديسين المعروفين بشفاء المرضى في الريف الفرنسي، على سبيل المثال، يدينون ببركاتهم إلى أنواع من الجناس، ساعدت عليها صيغ أسمائهم. كذلك يطفح الطب الشعبي بالوصفات الناشئة عن اللعب بالألفاظ، فترابط الأفكار يخلق أدوية من نوع الأمراض؛ ذلك أن الكلمات لها دائمًا قيمة رمزية(١)، إنْ قليلًا وإنْ كثيرًا(٢).

وهذا كما يقول فوكو: أمر واقع أصبح منذ زمن طويل مجالًا مشتركًا لعلم الاجتماع وعلم النفس المرضي، وهو أن لا وجود حقيقي للمرض ولا قيمة له إلا في ثقافة تُعطيه هذه الصفة. ويتابع فوكو متسائلًا: كيف يُعبِّر مجتمعنا عن نفسه رغم

(١) إنَّ معرفة الإنسان للأشياء بأسمائها هو إمساك لها في قبضته، لذلك كان السحرة المتطببون يقولون في رقاهم: (أيتها الحمّى! لن تفلتي منّي، فإني أعرفك باسمك!) والأمر الذي يُوجَّه إلى الداء ليفارق المريض أبلغ دلالة من ذلك. ففي معرفة اسم المرض شفاء من نصفه، ولا ينبغي لنا أن نسخر من هذه المعتقدات البدائية؛ فإنها لا تزال سارية حتى يومنا هذا؛ إذ لا زلنا نعتقد في أهمية الألفاظ التي تُعبِّر عن تشخيص الأمراض. فعندما يقول المريض: (عندي ألم شديد في الرأس يا دكتور). فيُجيب الطبيب: (عندك صداع). أو عندما يقول المريض: (إني سيِّئ الهضم يا سيدي الطبيب)، فيُجيب الطبيب: (عندك عُسر هضم). مثل هذه المحاورة تتكرر كل يوم في عيادات الأطباء. فقد يقال: إن الاسم الفني يُحدِّد المرض بأكثر مما يفعله الاسم العادي، وأنه يدل على مجموعة أعراض معينة، بحيث يتمكن الطبيب من القول في المريض قولًا له بنية علمية، وأن (الصداع)، على سبيل المثال، ليس مرادفًا لوجع الرأس، و(عُسر الهضم) ليس مرادفًا لسوء في الهضم. ولكن الواقع أن الطبيب لا يفعل أكثر من أن يضع كلمة مُعمّية مكان كلمة عادية مبتذلة يفهمها هؤلاء المرضى جميعًا، والمرضى يشعرون بالارتياح حينما يعلمون بأن رجل الطب قد عرف الداء الخفي الذي يشكون منه، عرفه باسمه. يُنظَر: فندريس: **اللغة**، ص٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) يُنظَر: فندريس: **اللغة**، ص٢٣٤، ٢٣٥.

ذلك بصيغ مرضية يتنكَّر لها؟[١].

وما يُعانيه القرن العشرون من تلك الخرافات اللفظية أكبر، على نحو ما، مما عاناه أي عصر سابق، فبفعل التطورات الحاصلة في مناهج التواصل، وخلق عدة أنظمة رمزية خاصة، تَغيَّر شكل المرض بوضوح، وبصرف النظر عن الثبات الغريب للمُنافحات الدينية أصبح يتخذ أشكالًا أكثر مكرًا مما كان عليه في الماضي. فالتأثيرات التي تُحدِث الانتشار الواسع لهذا المرض هي: التعقيد المحيِّر في المنظومة الرمزية التي تحت تصرفنا الآن، وامتلاك الكُتَّاب لمفردات لغوية هائلة شبه اصطلاحية مع عدم توافر الفرصة أو الرغبة لديهم للاستفسار عن استعمالها اللائق، ونجاح المفكِّرين التحليليين في مجالات متاخمة للرياضيات حيث يكون الطلاق بين الرمز والواقع صريحًا جدًّا والميل إلى إضفاء الصفة المادية مغريًا جدًّا، والتعرف على أشكال أكثر بساطة للمواضعة الرمزية، وارتباط ذلك باتساع الفجوة بين العامة والتفكير العلمي للعصر، وأخيرًا استغلال آلات الطباعة وذلك بنشر القوالب اللفظية الثابتة وتكرارها لأغراض سياسية وتجارية. إن الحضور الملحّ لوجهة النظر اللغوية البدائية في أعمال أكثر المفكرين عُمْقًا هو حقًّا واحد من أكثر السمات لفتًا للنظر في الفكر المعاصر[٢].

وكذلك يُسيطر اللعب بالألفاظ على طريقة حياة كثير من الجماعات البشرية، ويُزوِّدها بطرائق لمعالجة المشاكل وتسوية الخلافات، الفردية والاجتماعية، في كلام منضبط بدقة، تحتل فيه اللباقة والانضباط مكان تعابير عدم الموافقة العلنية. وما هو على قدر من الأهمية هو التركيز على تنوع أفعال الكلام التي تحدث في مجموعة سكانية والاهتمام بسمات أنماط الكلام الرمزية والفنية، وخصوصًا في الكلام الرسمي والشعائري، بالإضافة إلى الاستراتيجيات التي يُلجأ إليها في السلوك التواصلي وجهًا

(١) يُنظَر: أوزياس، جان ماري: **البنيوية**، ترجمة: ميخائيل إبراهيم مخوّل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٢م، ص١٥٧.

(٢) يُنظَر: أوغدن وآنفر: **معنى المعنى**، ص٩٤، ٩٥.

لوجه.

ويمكن لألعاب الكلام والاستراتيجيات والعادات الكلامية أن تتنوع بشكل كبير في الأداء الفعلي، ويعتمد ذلك على المواضيع الثقافية والاجتماعية المطروحة، فبالرغم من وجود تركيب ثابت بالنسبة لسيناريو الأحاديث الشعائرية المستخدمة في طلب الزواج، على سبيل المثال، لدى بعض المجتمعات، وهو سيناريو مقبول لأفراد المجموعة السكانية كافة، حيث يحتوي على مناقشات أوّلية، وبإمكانية تمسك كل طرف من الطرفين المفاوضين بأساليب متباينة، إلا أن هناك متسعًا كبيرًا للتنوع أو الاختلاف في استراتيجية مباراة الأفعال الكلامية هذه الدالة على التعقل والذكاء؛ وحالما تهدأ حالة التوتر بين العائلتين، يصبح هناك شعور متزايد نحو الالتزام بدقة وصراحة بطريقة أو بأخرى، ويؤدي التسامح والقبول بعدة أساليب في نهاية المطاف إلى تقارب ناجح. إن الإجراء لا يتقدم بنعومة ويُسر، حيث إن هناك نوبات عاطفية أثناء المناقشة؛ فسمة عدم إمكانية التنبؤ بما سيحدث نفسها هي التي تُثير الخطابة أو الكلام المنمق وتوصل الأداء إلى نهاية ناجحة(١).

ومن بين استخدامات المناورة في اللغة، نجد أن اللعب بالكلمات يحتل مكانة خاصة، فهو يؤكِّد أسلوبية اللغة أو وظيفتها (الاجتماعية – التعبيرية)، أكثر مما تفعله الوظيفة المرجعية للغة. ففي حين تزيد استمرارية التخاطب الكلامي الممثل بمجرد كلام وسيلي، وتُركِّز على نتيجة عملية التخاطب، نجد العكس في اللعب بالكلمات، حيث العملية تكتسب أولوية على النتيجة. ويمكن للباعث أن يكون مجرد اللعب، أو التمويه.

ولم تتم محاولة إظهار الوظيفة (الاجتماعية – التعبيرية) للغة في الأدب الرفيع فقط، ولكن إلى حدّ أكبر في أنواع متعددة من الثقافات والآداب كما في المبارزة الكلامية حول موضوع بعينه، أو لغات اللعب بالألفاظ؛ تلك اللغات التي تنطوي

(١) يُنظَر: بولوم: **اللغة والسلوك (اللغويات الأنثروبولوجية)**، ص٤٧٤.

على تحويلات منتظمة. وتُشكِّل لغات اللعب هذه جزءًا من الكفاءة اللغوية لمجموعة سكانية كاملة، ولكن بما أن استخدامها يتطلب الممارسة، فإنها غالبًا ما توظف كلغات سرّية لمجموعات فرعية محددة من المجموعة السكانية الكبيرة؛ لأن أعضاء المجموعة السكانية الآخرين يفتقرون إلى الطلاقة التي لا تأتي إلا من خلال الاستخدام الدائم. وغالبًا ما تتألف هذه المجموعة الفرعية من طلبة مراهقين ومن هم أصغر سنًّا من المراهقين يشعرون الآن، بعدما أتقنوا صيغ لغتهم القواعدية الأساسية، بحرية تجريب لغتهم في بيئة ربما كانت اهتماماتهم (الجنسية والفردية) تتعارض تمامًا مع اهتمامات عالم الكبار حولهم(١).

واللعب بالكلمات مُهِمّ نفسيًّا وعرقيًّا في استراتيجيات المزاج، فبعض المجموعات البشرية في مرتفعات شيباس في المكسيك تستعمل بذكاء فقدان التطابق أو الانسجام بين نظام الدلالة ونظام الخطاب في مصطلحات القرابة؛ للعب بالنظامين عكس بعضهما؛ لأن نظام الدلالة يتعامل مع مصطلحات القرابة على قدم المساواة، في حين يُميِّز نظام المخاطبة بينها. واللسانيات الأنثروبولوجية اليوم تتفحَّص أشكال الكلام ذات الصلة بكل نمط سلوكي، ولو كان على شكل ألعاب بالكلمات أو على شكل مبارزة كلامية (مجرد كلام طائش عابث، يتعلق بسلوك اجتماعي، أو كان ذلك مجرد كلام في ألغاز)(٢).

وهكذا فإنْ كان هنالك هدف ما أو غاية من وراء اللعب بالكلمات، فإنَّ في اللغة العربية ما يُساعد على استعمال هذا النمط من الأسلوب، بخلاف اللغات الأخرى التي تصاغ فيها النكات والأكاذيب باستعمال نثر عادي عاطل من أي حلية لفظية. فكتابة بعض الناثرين العرب فقرة بكاملها باستعمال حروف ذات أشكال معينة فقط، هو أمر يؤدي بالتأكيد إلى حجب الرسالة التي يُريد أن يوصلها، لكن

(١) يُنظَر: ليكوك وموليسلر: **هندسة اللغة (لغات خاصة)**، ص٨٥٣.
(٢) يُنظَر: بولوم: **اللغة والسلوك (اللغويات الأنثروبولوجية)**، ص٤٧٢.

هذا نفسه هو ما يحصل حين يُستعمَل الشعر السداسي الذي يُسمَّى: (sestina).

ومثل هذه الألعاب الكلامية التي هي أشبه بوسائل التسلية، لا يمكن أن ينجم عنها الحدّ من قدرة المتكلم على التفكير، إلا إن كانت اللعبة التي تُسمَّى لعبة الحروف المتقاطعة تؤدي إليها، وزيادة على ذلك لا يمكن أن نعد اللعب بالكلمات والتفكير الجاد أمرين لا يمكن الجمع بينهما، ولك أن تُقارِن بذلك شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦م) أو هوبكنز (١٩٣١ – ١٩٩٨م).

ويُعدُّ الكاتب الفرنسي رابلييه (١٤٩٤ – ١٥٥٣م) واحدًا من الكُتَّاب الذين يؤدي غرامهم بالجانب غير الناضج من اللغة إلى نوع من ضحالة الفكر أو التحجر، لكن اللوم هنا يجب ألا يُوجَّه إلى اللغة الفرنسية؛ ذلك أن الكاتب هو الذي يخلق أسلوبه ومعجمه الخاص به، وإذا كانت سمعة رابلييه عالية اليوم في فرنسا، فلا بد أن ذلك يعود جزئيًا إلى الصرامة والجد والجفاف الذي اتّسم به النثر الفرنسي بعده.

ومقارنة اللعب بالكلمات بالجمل المفككة التي يقولها المصابون بانفصام الشخصية أمر يُضعف من حجة القائلين بها؛ ذلك أن السبب هنا هو أن العقل في هذه الحال هو الذي يُؤثِّر على اللغة، فيمكن أن ينتمي الفرد إلى لغة تتسم بالمنطقية والوضوح كالإنجليزية، ومع ذلك لا يزال من الممكن له أن يكون عرضة للإصابة بالجنون أو أمراض الكلام[1].

(١) يُنظَر: جستس: **محاسن العربية في المرآة الغربية**، ص٦٢، ٦٣.

الخاتمة:

وبعدُ، فقد انتهت الدراسة من رصد مظاهر التعصب اللساني ضد اللغة العربية في دوائر البحث الغربية، وانحصر ذلك جزئيًا في الأثر السالب المتبادل بين البنية اللغوية للعربية والبنية العقلية للناطقين بها، وما انبثق عن ذلك من دعاوى ترمي البنية الأولى بالتخلف والجمود، وتُحيط البنية الثانية بالعجز والقصور. والدراسة بعد فحصها لهذه الدعاوى ونقدها نقدًا علميًا موضوعيًا، وبيانها لبطلان الأسس التي تقوم عليها، تزعم أنها قد توصَّلت إلى نتائج متنوعة يمكن تعداد أبرزها فيما يلي:

١. يمكن أن نتصوَّر أن الناس منذ تكوّن الجماعات اللغوية المتنوعة كانوا دائمًا، في مواجهة الاختلاف اللغوي، ميّالين إلى السُّخرية من عادات الآخرين، وإلى اعتبار أن لغتهم هم هي الأجمل، وهي الأنجع، وهي الأدق؛ أي أنهم كانوا دائمًا ميّالين إلى تحويل اختلاف الآخر إلى نقصان فيه؛ لأن من الطبيعي أن يكون الآخر دائمًا هو صاحب الاختلاف، فما دُمتَ لا تتكلم مثلي، فإذًا أنت تتكلم بصورة غرائبية. ومن ثَمَّ فإن تقدير هذه المزايا التي يفترض المتكلمون أنها موجودة في لغاتهم فحسب، يرجع إلى حدّ كبير إلى الذوق الشخصي، ومن ثم يدخل في المناقشة عنصر ذاتي من شأنه أن يُزيّف المسألة من أساسها. ومن هنا يقع على عاتق اللسانيات المعاصرة دحض مثل هذه الدعاوى الزائغة والنظرات الشعبية التي لا تزال قائمة. فهنالك مجموع نموذجي متوسط للغات يجعل من غير المقبول إقامة تفاوت بالغ بينها. ومن ثَمَّ كانت الطريقة الموضوعية صالحة للتطبيق في اللسانيات تمام الصلاحية.

٢. إن التنوع اللغوي أمر قائم، وعلينا ألا نسمح له بالاختفاء خلف مفهوم (التفاضل) الذي يفترض وجود تفاوت بين اللغات. فالتمييز بين اللغات وإجراء مفاضلات بينها خارج عن إطار العلم والموضوعية، ومع ذلك فلا نزال نجد إلى اليوم من يتكلم بثقة وبفخر عن لغات متحضرة وأخرى بدائية أو متخلفة.

٣. إن الأصول الأولى لظاهرة التعصب اللساني سابقة للحضارة الإسلامية، فهي موجودة في الثقافة الغربية منذ زمن الإغريق، فالغرباء هم (برابرة) عند أهل أثينا؛

لأنهم لا يتكلمون الإغريقية. فالنظر في واقع الثقافة الغربية يُقدِّم الوثائق الأولى لظاهرة التعصب اللساني، كما نجدها في الثقافة الإغريقية القديمة.

٤. إن اللغة العربية التي تُمثِّلها المادة الضخمة التي بين أيدينا اليوم هي لسان التنوع العرقي الإسلامي العظيم، الذي كان نتيجة للتوسع الإسلامي، وهي التي تُمثِّل أعظم تجاوز للنسب والمكان الخالصين، ويجب أن تُنبَذ أي محاولة يُقصَد منها استخلاص أي شيء عن العرب من اللغة العربية أو العكس.

٥. إن اللغة بصوتياتها وبكيانها الصرفي وتراكيبها النحوية لها وجود خاص مستقل عن استعدادات المتكلم النفسية والعقلية، واللغة تفرض نفسها عليه في صورة نظام قد أُعِدَّ من قَبْل، في هيئة آلة وُضعت في يده. وهو يستعملها لغايات شتى، ولكنها في كل الحالات آلة واحدة بعينها، ومُهمَّة اللساني هي بالضبط أن يدرس ما في هذه الآلة من جوهري ومن دائم. ومن ثَمَّ فإن اللغة في وسعها أن تُدرَس مستقلة عن العقلية. فضلًا عن ذلك، فليس من المؤكد أن الأسباب التي تؤثِّر على اللغة تُحدِث في العقلية آثارًا مماثلة. فالأجزاء الجوهرية الدائمة في اللغة تتحوَّل وفقًا لقواعد ليس للعقلية فيها أي نصيب. وهذا بالذات هو ما أدّى إلى الافتراض بأن للغة حياة مستقلة عن كل حياة نفسية أو فسيولوجية أو اجتماعية. والواقع أن الفروق التي نلاحظها في فترة ما، من التاريخ بين لغتي شعبين، حتى ولو كانتا من أصل واحد، يمكن تفسيرها بظواهر لغوية خاصة بتطوّر كل واحدة من اللغتين، وبالتالي لا تسمح لنا بحال أن نصدر حكمًا ما على عقلية الشعبين.

٦. إن علاقة اللغة العربية بالأفكار الحقيقية هي من حيث المبدأ مسألة طريفة، وهي مثال مُحيِّر للمسألة الشائكة المتصلة بالعلاقة بين الفكر واللغة بصفة عامة، فمن الصعب أن يُقال شيء محدد عنها، وذلك لطبيعة الفكر غير المحددة. وهكذا فإنه من الواضح أن تحديد الفكر المتعدد المستويات عند مجموعة لغوية تنتمي إلى دول عديدة، سيكون ضحية لصعوبات منهجية كثيرة. وبما أنه يُنظَر إلى اللسان بوصفه نسقًا لمعالجة مستقلة نسبيًا ومتميزة عصبيًا من الوظائف الإدراكية الأخرى، فإن القول بأن اللغة الإنجليزية، على سبيل المثال، أكثر ملاءمة لعملية التفكير من اللغة العربية، لا معنى له

على الإطلاق، فالمعرفة الإنسانية والتفكير المنطقي محلُّهما لغة التفكير، وهي شكل من أشكال اللغة العقلية التي تسبق وجود اللغة، والتي لا يمكن اكتساب اللغة بدونها.

٧. ليس صحيحًا أن العرب مولعون باللعب الكلامي على حساب الفكر، وإذا كان هنالك هدف ما أو غاية من وراء اللعب بالكلمات، فإنَّ في اللغة العربية ما يُساعد على استعمال هذا النمط من الأسلوب، بخلاف اللغات الأخرى التي تصاغ فيها النكات والأكاذيب باستعمال نثر عادي عاطل من أي حلية لفظية. ومثل هذه الألعاب الكلامية التي هي أشبه بوسائل التسلية، لا يمكن أن ينجم عنها الحدّ من قدرة المتكلم على التفكير، إلا إن كانت اللعبة التي تُسمَّى لعبة الحروف المتقاطعة تؤدي إليها، وزيادة على ذلك لا يمكن أن نعد اللعب بالكلمات والتفكير الجاد أمرين لا يمكن الجمع بينهما.

المصادر والمراجع:

أفلاطون: **محاورة كراتيليوس (في فلسفة اللغة)**، ترجمة: عزمي طه السيد أحمد، عمّان، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٥م.

أوزياس، جان ماري: **البنيوية**، ترجمة: ميخائيل إبراهيم مخوّل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٢م.

أوغدن، تشارلز كي وريتشاردز، آنفر آرمسترونغ: **معنى المعنى (دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية)**، ترجمة: كيان أحمد حازم يحيى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، د.ت.

بولوم، إيدجر: **اللغة والسلوك (اللغويات الأنثروبولوجية)**، ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب: (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثاني (مجال اللغة الأوسع)، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٢١هـ.

بيك، باسكال وآخرون: **أجمل قصة عن اللغة**، ترجمة: ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩م.

بيكرتون، ديريك: **اللغة وسلوك الإنسان**، ترجمة: محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع، ٢٠٠١م.

ج. بوردن، جلوريا وس. هاريس، كاثرين: **أساسيات علم الكلام**، ترجمة: محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، حلب، ١٩٩٠م.

جستس، ديفيد: **محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية**، ترجمة: حمزة قبلان المزيني، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٥هـ.

حجاج، كلود: **إنسان الكلام (مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية)**، ترجمة: رضوان ظاظا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣م.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (٤٥٦هـ): **الإحكام في أصول الأحكام**، الجزء الثالث، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت: ٤٥٦هـ): **"نقض تفاضل اللغات"، ضمن كتاب (اللغة: دفاتر فلسفية)**، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال، ط٤، ٢٠٠٥م.

الحموي، ياقوت بن عبد الله (٦٢٦): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

دو سوان، أبرام: **كلمات العالم (منظومة اللغات الكونية)**، ترجمة: صديق محمد جوهر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠١١م.

دويتشر، غاي: **عبر منظار اللغة (لِمَ يبدو العالم مختلفًا بلغات أخرى؟)**، ترجمة: حنان عبد المحسن مظفر، سلسلة عالم المعرفة (٤٢٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠١٥م.

ديكرو، أوزوالد وسشايفر، جان ماري: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٣م.

ديورل، مارتن: **اللغة انتماء جغرافي**، ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد٣ (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٢١هـ.

سابير، إدوارد: **مدخل للتعريف باللغة**، اختيار وترجمة: سعيد الغانمي، ضمن كتاب: اللغة والخطاب الأدبي (مقالات لغوية في الأدب)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٣م.

سامسون، جفري: **مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)**، ترجمة: محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤١٧هـ.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت: ٧٦٤هـ): **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.

فندريس، جوزيف: **اللغة**، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤م.

كالفي، لويس جان: **حرب اللغات والسياسات اللغوية**، ترجمة: حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨م.

ليكوك، دونالد وموهليسلر، بيتر: **هندسة اللغة (لغات خاصة)**، ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثالث (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٢١هـ.

ليونز، جون: **اللغة واللغويات**، ترجمة: محمد إسحاق العناني، مؤسسة رلي للنشر، عمّان، ١٩٩١م.

مالبرج، برتيل: **مدخل إلى اللسانيات**، ترجمة: السيد عبد الظاهر، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م.

مونان، جورج: **علم اللغة في القرن العشرين**، ترجمة: نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٢م.

هاريس، روي وتيلر، تولبيت: **أعلام الفكر اللغوي (التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير)**، تعريب: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ٢٠٠٤م.

Bibliography

Plato: **The Cratylus Conversation (On the Philosophy of Language)**, translated by: Azmi Taha El-Sayed Ahmed, Amman, Ministry of Culture Publications, 1995 AD.

Ozias, Jean-Marie: **Structuralism**, translated by: Mikhail Ibrahim Makhoul, Ministry of Culture and National Guidance, Damascus, 1972 AD.

Ogden, Charles Key and Richards, Andrew Armstrong: **The Meaning of Meaning (A study of the impact of language on thought and the science of symbolism)**, translated by: Kayan Ahmed Hazem Yahya, United New Book House, Benghazi, d.T.

Bolum, Edger: **Language and Behavior (Anthropological Linguistics)**, translated by: Mohieddin Hamidi and Abdullah Al-Humaidan, in the book: (The Linguistic Encyclopedia), Volume Two (the wider field of language), King Saud University, Riyadh, 1421 AH.

Beck, Pascal and others: **The most beautiful story about language**, translated by: Rita Khater, The Arab Organization for Translation, Beirut, 2009 AD.

Bickerton, Derek: **Language and Human Behavior**, translated by: Muhammad Ziyad Kubba, King Saud University, Scientific Publishing and Printing Press, 2001 AD.

J. Borden, Gloria and S. Harris, Catherine: **The Basics of Theology**, translated by: Mohiuddin Hamidi, Arab Orient House, Aleppo, 1990 AD.

Justice, David: **The Advantages of Arabic in the Western Mirror or the Significance of Shape in Arabic in the Light of European Languages**, translated by: Hamza Qabalan Al-Muzaini, King Faisal Center for Research and Islamic Studies, Riyadh, 1425 AH.

Hajjaj, Claude: **Man of speech (a linguistic contribution to the human sciences)**, translated by: Radwan Zaza, The Arab Organization for Translation, Beirut, 2003 AD.

Ibn Hazm, Abu Muhammad Ali bin Ahmad: **The Accuracy in the Fundamentals of Judgments**, Part Three, investigated by: Ahmad Muhammad Shakir, Dar Al Afaq Al Jadeeda, Beirut, 1983 AD.

Ibn Hazm, Abu Muhammad Ali bin Ahmed: **"Refutation of the Differentiation of Languages"**, in the book (Language: Philosophical Notebooks), prepared and translated by: Muhammad Sabila and Abd al-Salam Ibn Abd al-Aali, 4th edition, Casablanca, Dar Toubkal, 2005 AD.

Al-Hamawi, Yaqout bin Abdullah (626): **Dictionary of Countries**, Dar Sader, Beirut, 2nd Edition, 1995 AD.

Du Swan, Abram: **Words of the World (The Universal Language System)**, translated by: Siddiq Muhammad Jawhar, Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage, Abu Dhabi, 2011 AD.

Deutscher, Guy: **Through the Perspective of Language (Why does the world look different in other languages?)**, translated by: Hanan Abdel Mohsen Muzaffar, The World of Knowledge Series (429), the National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait, 2015 AD.

Decroux, Oswald and Schaeffer, Jean-Marie: **The New Encyclopedic Dictionary of Linguistics**, translated by: Munther Ayachi, The Arab Cultural Center, Beirut, 2003 AD.

Durrell, Martin: **Language is a geographical affiliation**, translated by: Mohiuddin Hamidi and Abdullah Al-Humaidan, in the book (The Linguistic Encyclopedia), Volume 3 (Some aspects of language), King Saud University, Riyadh, 1421 AH.

Sapir, Edward: **Introduction to Language Definition**, Selected and Translated by Saeed Al-Ghanimi, in the book: Language and Literary Discourse (Linguistic Articles in Literature), Arab Cultural Center, Casablanca, 1993 AD.

Samson, Jeffrey: **Schools of Linguistics (Race and Evolution)**, translated by: Muhammad Ziyad Kubba, King Saud University, Riyadh, 1417 AH.

Al-Safadi, Salah Al-Din Khalil bin Aybak (T: 764 AH): **Al-Wafi with Deaths**, investigation: Ahmed Al-Arnaout and Turki Mustafa, Heritage Revival House, Beirut, 2000 AD.

Fenderes, Joseph: **Language**, translated by: Abdel Hamid Al-Dawakhli and Muhammad Al-Qassas, The National Center for Translation, Cairo, 2014 AD.

Calvi, Louis Jean: **The Language War and Language Policies**, translated by: Hassan Hamza, The Arab Organization for Translation, Beirut, 2008 AD.

Lecock, Donald and Mullheisler, Peter: **Language Engineering (Special Languages)**, translated by: Mohieddin Hamidi and Abdullah Al-Humaidan, in the book (The Linguistic Encyclopedia), Volume Three (Some Specific Aspects of Language), King Saud University, Riyadh, 1421 AH.

Lyons, John: **Language and Linguistics**, translated by: Muhammad Ishaq Al-Anani, Riley Publishing Corporation, Amman, 1991 AD.

Malberg, Bertil: **An Introduction to Linguistics**, translated by: El-Sayed Abdel-Zaher, Cairo, The National Center for Translation, 2010 AD.

Monan, George: **Linguistics in the Twentieth Century**, translated by: Najib Ghazzawi, Ministry of Higher Education, Damascus, 1982.

Harris, Roy and Teller, Tolbit: **Flags of Linguistic Thought (The Western Tradition from Socrates to Saussure)**, Arabization: Ahmed Shakir al-Kalabi, United New Book House, Benghazi, 2004 AD.